القرآن يتحدث عن الدعوة ..

عبدالرحمن البربري

دار البشير للثقافة والعلوم



القرأن يتحدث عن الدعوة

حقوق الطبع محفوظة

1421 هـ - 2001 م

* الكتـــــاب : **القرآن يتحدث عن الدعوة**
* الكـــاتـــب : **عبدالرحمن البريرى**
* الطبـــعـــة : الأولى 2001.
* الناشر والتوزيع : **دار البشير للثقافة والعلوم - طنطا .**

تليفاكس: 3305538 - 040/3321744

☎: 2120277 - 040 / 2120907

أصالة للتجارة والتسويق - الزقازيق

تليفاكس: 353988 / 055

* التجهيز الفنى : الندى للتجهيزات الفنية - المحلة الكبرى

تليفاكس: 2120277 / 040

* الإيداع القانونى: 11735 / 2000
* الترقيم الدولى : I . S . B. N 977 - 278 - 169 - 7

Web Site :www. albashir.com.eg

E-mail:albashira@compu-castle.com.eg



مقدمة

يقف الراغبون فى الانضمام إلى موكب الدعوة الإسلامية على مفرق الطريق . . فمنهم من يندفع وراء أى ناعق ، لا يلوى على حق ، ولا يلتفت إلى صواب . . ومنهم من تخدعه شعارات خلابة ، وطقوس قد أخذت زخرفها وازَّينت ، فلا يذوق جوهر الدين ، ولا يتلمس حقيقته وسرَّه . . ومنهم من تستهويه الكثرة الكاثرة والجموع الغفيرة ، فهو إمَّعة حين يسير ، وجامد حين يقف ، وتائه حين يريد الطريق .

وهناك من يرمى نفسه لأول قادم ، فيحركه كالدُمى فى أيدى الأطفال ، لا حول له ولا قوة . . وهناك من يتملق ، فيلتحق حين تتأكد مصلحتُه ، ويجتهد حين تتحقق منفعتُه . . وهناك من ينظر إلى زعامته ورياسته ، ويبحث عن وضعه ومكانته .

صنوف عديدة تقف عند مفترق الطريق ، قد احتدم صراعها ، وتأزَّمَ خلافها ، فأصيبت الدعوة بالجمود والتثاؤب ، واستمرأ أصحابها التفرُّق والتحزُّب ، وأُشربوا فى قلوبهم التمزق والتشتت ، وقدموا صورة باهتة للإسلام والحياة ، وفتقوا فى الدين الفتوق جميعها ، وأضروا أكثر مما نفعوا ، وهدموا أكثر مما بنوا . . ثم ناموا . . وما برحت سفينتهم التى تلاطمها الأمواج تصطدم بصخور قوية ترجها رجاً . . إلا إنهم فى غفلتهم سامدون ، وفى اختلاف ذات بينهم متلذذون راضون !

بيد أن هناك مواكب من الدعاة تقف هناك وسط هذا الصخب الصاخب . . وها هى الآن تشق طريقها ، وتنفض عن كاهلها غبار الدعوات الهجينة ، وتبدأ دعوتها الخالصة ، وتشفعها بأفعالها الرضيَّة ، وأقوالها الزكيَّة ، وتسلك الطريق

اللاحبة ، حاملةً فى يدها شعلة الخلاص والتنوير . . قد استأثرت بالبحث والتدقيق، واستلهمت الرشد والصواب ، واستشرفت آفاق العمل الإسلامى الصحيح ، وتطلعت إلى ثواب الله ورضوانه .

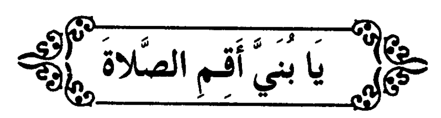
وقد بدأت طريقها الوضىء على مهل واتئاد . . تنهل من نبع القرآن الصافى ، وترتشف من رحيقه الفواح ، وتأنس بحدائه الحبيب .

وفى القرآن الدعوة فى أبهى صورها ، وأجل معانيها ، وأبين معالمها . . فهو كتاب دعوة . . تتراءى من خلاله آفاقها العليَّة ، ومواقفها الصادقة ، وقصصها التى تفيض عبرة وعظة .

يجب على الدعاة اليوم — ومن يلتحق بركبهم - أن يتجردوا كل تجرد ، فلا يلتفتوا إلى هوى نفسٍ ، أو إقبالِ دنيا ، أو إعجابٍ برأى ، أو منفعةٍ زائلة . .

بل ينبغى أن يخلصوا ، ويسددوا ، ويصبروا . . وأن يتلاقوا . . ولكن على طريق القرآن ، والقرآن وحده !





تتراءى أمامى الآن صور ثلاث ، تصب جميعها فى بوتقة الداعى حين يكون أباً أو زوجاً .

ولعل نقطة البُداءة تكون مع خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، وقد رزقه الله غلاماً حليماً ، هو إسماعيل أبو العرب جميعاً .

ونتخطى حاجز الزمان والمكان ؛ لنتملى هذا المشهد المهيب ، الذى اهتزت له السموات والأرض !

ها هو الشيخ الجليل يقص على ابنه نبأ الابتلاء المبين ، يقص عليه رؤياه الحقة . . أنه يذبحه . . هكذا يريد الله ، وهكذا يرغب إبراهيم فى تنفيذ هذه الإرادة العليا .

تتراءى لنا صورتهما وهما يتناجيان . . فى سمت هادئ ، وتسليم مطلق ، وطمأنينة لا تخدشها حيرة ، ويقين لا يساوره شك ، ووقار لا يهزه ضخامة الأمر ولا مرارة التنفيذ .

لم يَتَفَزَّع الابن الحليم ، ولم يتردد ، ولم يراجع أباه ، ولم يطلب منه مهلة للتفكير ، ولم ينظر فى الأمر مجرد نظر ، على الرغم من أنه الذبح ، وعلى الرغم من أنه البلاء المبين !

هذا موقف كله استعلاء ، حين يستعلى هذا الغلام الحليم بإيمانه على هذا الجسد الفانى ، وذاك الدم الغليظ . . حين يَنظر إليه على أنه وديعة هينة ، قد نُسلمها إلى من منحنا إياها فى أية لحظة بلا تشبث أو تعلق ، وقد نتخلى عنها إن كانت هى سبيلاً إلى مرضاة الله ، أو سبيلاً إلى السمو والارتقاء !



وهذا موقف كله تجرد ؛ حين نستغنى عن حب هذه الدنيا الفانية ، ونهجر لذاتها وشهواتها ، ونخلع عن أنفسنا رغبةَ البقاء ، والتمتع بهذه الدار . . ونقطع هذه الرحلة فجأة ، بإذن من الذى شاء أن نبدأها . . نفعل ذلك ونحن راضون ، ونفعل ذلك ونحن متجردون كل تجرد ، ومخلصون الإخلاص عينه .

ونعود إلى الصورة التى قطعناها من الماضى السحيق ، حيث ترتسم أمامنا ، والشيخ الجليل بيده السكين ، وابنه بجواره ، كأنهما ذاهبان إلى شىء آخر غير الذبح . . نفس الطمأنينة ، وذات السكينة ، طالما أن الأمر فى مرضاة الله .

وأذعن الأب والابن للأمر الإلهى ، وتلَّه للجبين . . عندئذ لا حاجة لأن يسيل الدم أو تَقْطَع السكين ، فهذا لا يساوى فى ميزان الله مثقال ذرة ، بل يناله التقوى والتجرد والإخلاص والاستسلام . . هذا ما يريده الله سبحانه لا غيره !

مثل فريد غير مسبوق ولا ملحوق . . يُضرب حين يكون التجرد فى أبهى صوره ، وحين نتخلص من ملابسات هذه الأرض ، وحين نعلو ونسمو : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (1).

ونقف هنا عند قوله تعالى ﴿ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ ؛ لنتأمل هذه الشفافية ، وتلك الرحمة فى عرض القضية على ذاك الابن الحليم .

فالمسألة تتعلق بالحياة ذاتها ، وبذبحٍ أليم سيقع ، وبابتلاء عظيم سيتحقق ،

---

(1) الصافات : 98 - 107 .



وبأمر لا يمكن أن يكون من طرف دون آخر ، أو برضا دون رضا ، ولكنه يتعلق بالله سبحانَه ، الذى لا يرضى الإكراه أو القسوة أو الجفاء .

لم يكن هذا الأمر واجباً فقهيّاً ، أو فرضاً شرعيّاً ، أو ضرورة من ضرورات الإيمان .

بل كان اختباراً يقيس مدى التجرد ، وابتلاء يُدلل على مدى المحبة والتقرب ، ودرساً قد تعلمناه من ذوى الصفوة الأخيار .

وكان ـ أيضاً ـ واجباً من واجبات الحب الإلهى ، وفرضاً من فروض الطاعة المطلقة ، وضرورة من ضرورات الإخلاص عند من اصطفاهم الله واصطنعهم لذاته العليَّة .

إنه أمر خاص جداً ، يتناسب مع خصوصية خليل الرحمن وذريته المباركة ، وإنه أمر يُمثل قمةَ القمم حين نُقدم أغلى ما عندنا لله سبحانه ، وبالطريقة التى يريدها .

ولكن مع خصوصية هذا الأمر كان لنا فيه وافر النصيب ؛ فنظل نتطلع إليه ، ونتطاول إليه أعناقنا ، ونتدرج شيئاً فشيئاً ، ونحاول فينة بعد فينة ، ونبذل جهداً جهيداً ؛ حتى نقترب أكثر فأكثر ، ونتجرد لله جُلَّ التجرد ، أو قُلْ كلَّه ، ونخلع عن أنفسنا شيئاً من أثقال الأرض التى تَشدنا إليها ، وننفض عن كاهلنا عوائق الجسد ولذائذه الزائفة ، ونُقدم للذى وهب لنا هذه الحياة حياة أخرى . . أكثر صفاءً ، وأكبر حبّاً وقرباً ، وأعظم تضحية وبذلاً ، وأقوى إيماناً وإخلاصاً .

صار ذلك رمزاً من رموز الأمة جميعاً ، وعيداً من أعيادها ، فنذكر ذلك الموقف المهيب ، وهذا الفداء الحبيب ، وهذه القمة حين نتجرد لله ، وحين نسمو ونعلو بلا عوائق أو سقوط .

لم تكن استشارة إبراهيم عليه السلام لابنه حين قال له : ﴿ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ من باب اختبار قوته ومدى احتماله ، ولم يكن القصد الأول تهوين الأمر عليه ، ولم يكن إبراهيم عليه السلام لينفذ أمر به إجباراً أو إكراهاً .

إنها استشارة حقيقية ، تتأكد حين تكون النفوس أكثر اطمئناناً ، والقلوب أعمق إيماناً ، والرضا الشامل يحيط بنا من كل جانب . . وحين يتعلق الأمر بأناس قد اصطفاهم الله واختارهم ، وألقى عليهم محبته وقربهم . . وحين يبلغ المؤمن شأواً من التجرد والإخلاص رفيعاً ، ومكاناً من الود والأنس شفيفاً . . حينها يؤمر بذبح ابنه فلا يتردد ، وحينها أيضاً يستشير فلا يتعسف . . فهى قلوب صافية ، ونفوس رضيَّة ، وهمم قد سمت وعلت ، فيكون ردُّها على إزهاق روحها : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

والأب المؤمن حين يدعو ولده إلى خير وصلاح يرْفق ويتودد ، وخصوصاً إذا كان قد بلغ معه السعى . . فالهُدَى لا يدخل القلوب عنوة ، والتقوى لا تفرض على الناس بالقهر والإجبار .

كثير من الآباء قد استخدم سطوته ، واستغل نفوذه ، وأحكم قبضته على رعيته ، وخال أمورَ الدين قوانين يجب فرضها ، واستمرأ ذلك النهج واستساغه ، ولم يجنح إلى ود حين وَعَظَ ، ولم يَرد على لُطف حين نَصَحَ ، ولم يَملْ إلى لين حيث دَعَا . . حتى إذا كبر الصغير ، وشبَّ الوليدُ ، ونَهَدَت الصبية ، وانحلَّ كلُّ فرد فى الأسرة من هذه العُقَد الأبوية ، واختار كل ابن طريقه المرسوم . . أبصرتَ انحلالاً فاضحاً ، وانسلاخاً بغيضاً ، وفسوقاً دونه كل فُسوق !

لابد أن نَسقى أولادنا أمور الدين بشىء من الود واللين ، ويجب أن نكون من ذوى الحلم والأناة ، ويجب أن نقول لأحدهم أحياناً : ﴿ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ ؛ حتى يستمر الصلاح الذى ننشده لهم ، وحتى لا يتخلوا عنه فى لحظة من اللحظات .

وقد كبر إسماعيل ، وصار رسولاً نبيّاً ، وها هو الآن يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وهو مرضيّ عنه من الله كل الرضا : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ [1].

وتتسرح بنا الرؤى من واد إلى واد ، فترتسم أمامنا صورة هذا النبى الكريم ، وهو يعظ أهله ، ويحثهم على طاعة اللّه ، ويأمرهم بالصلاة والزكاة .

أجل . . يأمرهم بالصلاة فى ذهابه وإيابه ، وفى صباحه ومسائه ، وفى مغداه ومراحه . . لا يفتأ يُذكرهم بها ، يدعوهم إليها ، ولا يزال حريصاً على ذلك ، لا يمل ولا يكل ، إنه يحب أهله ، ويحب لهم الجنة ، ويرضى لهم النعيم فى الدار الآخرة ، فلماذا لا يأمرهم بها ؟! ولماذا لا يحثهم عليها ؟! فهم بضعة منه ، تقر بهم عينه ، وتطيب بهم نفسه ، وهم امتداد لسمته ووصفه ، يُلبسهم من حرصه وعنايته، ويُحيطهم بوده وعطفه واهتمامه .

لا يعزب [2] عن فطنته أهمية الصلاة ، فهو وأهله على الأُهْبَة ، لا يشغلهم عن الصلاة شاغل ، ولا يحول دونها أى عائق ، بل هى طعامهم وشرابهم ، وزيهم ولباسهم . . وهى النَّفَسُ الذى يسرى فى أرواحهم ، فتدب فيها الحياة ، وتخفق حينها بأقوى نبضات السمو والشفافية ، وتطمئن فلا تقلق ، وتأمن فلا تفزع ، وتسعد فلا تشقى ، وتثبت فلا تضطرب ، وتتخلص من التصورات الأرضية الضيقة، وتنال نصيباً وافراً من التشوف والتطلع ، فتصعد إلى خالقها ـ وهى بعدُ واقفة على هذه الأرض ـ فتستمد منه الرضا العميم ، والسكينة التى لا يشو بها فزع أو ارتياع .

---

(1) مريم : 54 - 55 .
(2) لا يغيب .

وهنا تبدأ الصورة الثانية التى نود الوقوف عندها . . فإذا كان نبى الله إسماعيل - فى الصورة الأولى - قد حث أهله على الصلاة ، فإن الله سبحانه قد حث نبيه محمداً أن يأمر أهله بالصلاة ، ويصطبر عليها : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ (1)

إنها الصلاة . . ولا شىء غير الصلاة . . كأنها الدين ، أو قُلْ هى الدين بدقِّه وجلِّه ، وظاهره وباطنه ، وشكله وجوهره . . بل هى كل شىء فى هذا الدينَ ، لأنهَا لا تترك شيئاً من أقواله وأفعاله حين تَتحقق ، ولا تفرط فى شىء من أصوله وفروعه حين تَتأكد .

إنه أمر بالتفرغ الكامل لهذه الصلاة ، فأنت وأهلك وذريتك . . حافظوا عليها، وداوموا ، وسددوا وقاربوا . . لا يشغلك شىء عنها ، حتى الرزق نفسه لا نسألكه ، فنحن نرزقك وأهلك ، فانسَ هذا الرزق الآن ، ولا تتعلق به ألبتة ، واجعل همك هذه الصلاة ، والزم نفسك وأهلك بها . . فهى الأصل ، وهى الناجية ، وهى الفارقة ، وهى البرهان والنور .

والعاقبة للذين اتقوا ، ولن تتحقق تقوى دون سجود وركوع ، ولن تكون هناك خشية دون قيام وطهور .

إن الرجل فى بيته حين يُقيمه على الصلاة ، وحين يلزم أهله بالركوع والسجود، فلا أقل من أن يوصف بأنه بيت يحبه الله ، ولا أقل من أن يكون بيت خيرٍ وبركة .

فالأم تركع لله وتسجد ، والبنت والولد فى خشية وتقوى ، والأب هنالك فى بيت الله مع جماعة المؤمنين ينال الثواب ويُؤجر .

---

(1) طـه : 132 .

حين تكتمل هذه الصورة تكتمل معها أصول هذا الدين وفروعه ؛ فما تجد كذباً أو خيانة ، وما تَلقى إثماً أو فجوراً ، وما تقع عينك على مفسدة أو مذمة ، بل تجدها أسرة حَيِيَّة غير عَصيَّة ، طيبة رَضيَّة ، تتطلع إليها القلوب والأرواح ، وتتعلق بها الأفئدة والأبصار ، ويأتيها الأمن من كل مكان ، وما هى بمهانة ، ولكن الله كالئها وحافظها .

هناك من البيوت ما يرتاح لها قلبك ، وتأنس بها روحك ، وتطمئن لها نفسك ؛ لأن الملائكة هناك فى كل أركانها ، ولأن الصلاة تقام فى كل زاوية من زواياها ، ولأن وجوه أصحابها سمحة لا مكر فيها ولا خداع ، وقلوبهم نقية لا حسد فيها ولا نفاق ، وأقوالهم زكية لا التواء فيها ولا مواراة ، وأفعالهم طيبة لا إثم فيها ولا عدوان . . كأنهم من الجيل الأول ، وكأنهم قد أتوا إلينا من زمن الرسول ، وكأنهم قد جالسوا الملائكة أو اصطحبوا الروح القدس !

والداعى لابد أن يكون بيته كذلك ، فهو قدوة ، وقدوته ليست ذاتية أو شخصية ، بل هى شاملة ، ينظر الناس من خلالها إلى شخص الداعى ، وإلى زوجه ، وإلى ذريته . . فإن كانوا على خلق ودين كان وعظه صادقاً ، ونصحه مقبولاً ، ودعوته لا نقد فيها ولا تجريح .

لابد شرعاً أن ينهض الداعى بأهله وذوى قرابته ، ولابد عقلاً أن يَتأكد من ذلك ويَتحقق ، وله فى القرآن تنويه وتذكير : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ (1) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (2) .

لا يقبل الناس من ذلك الداعى الذى يحث أبناء المسلمين على الصلاة وولده لا

(1) الشعراء : 214 .
(2) التحريم : 6 .

تعرف قدماه بيوت الله ، ولا ذلك الذى يحث بناتهم على الاحتشام وأهله للسفور أقرب وللتبرج أدوم ، ولا ذلك الذى يدعو الأزواج إلى حسن معاملة زوجاتهم ، وهو مع زوجته كالليل إذا أوحش ، والنهار إذا زوابعه هاجت واشتدت ، لا يخفض جناحيه فَيَتَودد ، ولا يَنْتقى حديثه فَيَتَقرب .

هناك من الدعاة من يضرب المثل الأعلى فى الصدق والإخلاص ، فيأخذ نفسه بالعزائم ، فيُضفى على أقواله قبساً من الحق والصواب ، وعلى أفعاله نوراً من الخير والصلاح . . ثم ترى بيته قائماً على شرع الله ، لا يَندُّ عن الهدى فرد من أفراده ، ولا يشذ عن الفلاح واحد من أتباعه .

وهذا المثل حين يَتحقق يمنح الدعوة كثيراً من القبول والتقدير ، وكثيراً من الأتباع والمؤيدين ، ويضمن لها ثباتاً لا تقهقر بعده ، واستمراراً لا توقف فيه ولا انقطاع .

ونأتى إلى الصورة الثالثة . . وفى هذه المرة مع « لقمان » الحكيم ، وهو يعظ ابنه . . فى حنان لطيف ، وود بالغ . . وفى موعظة حسنة ، وتبصر بأمور الدين والدنيا لا نظير له ولا شبيه .

ويتراءى فيه أمر الصلاة ، كما تراءى لنا فى الصورتين السابقتين : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا

أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (1).

وتبدأ دعوة « لقمان » لابنه بالنهى عن الشرك ، فهو الظلم عينه ، والخسران نفسه . . وهو الذى يورد المهالك ، ويجلب المصائب . . وهو الذى يدعو إلى الحيرة الهالكة ، والقلق المثير . . وإلى الاضطراب المدمر ، والشك المريب . . وإلى الشتات العميق ، والضياع الأكيد .

وهو حين يتسرب إلى القلوب يمزقها كل ممزق ، فتتشرد أيما تشرد ، وتضل سواء السبيل ، فيلقفها إبليس ، ويَسحبها حيث يريد ، وما يريد إبليس خيراً قط ، بل يريد جهنم وبئس المصير !

هناك من الشباب من انغمس فى مستنقع الشرك ، فاعتنقوا تيارات وافدة ، ومذاهب مستوردة ، وجعلو الدين وراءهم ، بل غَيّبوه عن حياتهم ، وتَزَيّوا بأزياء أخرى ، ولبسوا أردية الشرك والضلال ، فانزلقت أقدامهم فى وحل الفسوق والعصيان ، ولما يخرجوا بعد ، وما هم بخارجين من النار !

ثم تتحدث هذه الوصية عن علم الله المطلق : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ .

إنه تمثيل دقيق لعلم الله الواسع ؛ بل هو الحقيقة ذاتها . . فالشىء مهما تناهى فى الصغر ، فكان مثقال حبة من خردل ، فكانت فى صخرة من الصخور المترامية هنا وهناك ، من التى وَطئها الإنسان أو لم يَطَأها ، أو كانت فى أعلى السماء ، أو فى باطن الأرض العميق . . مهما صغرت ، ومهما كان موقعها فإن الله عليم بها ، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

(1) لقمان : 11 - 19 .

وحين تستقر هذه الحقيقة فى قلب الناشئة ، وحين تَترسخ وتَتأكد ، نكون قد أخرجنا جيلاً قوياً إيمانه ، عميقاً إخلاصه ، حيّاً ضميره ، يراقب الله فى كل صغيرة وكبيرة ، وفى كل خاطرة وخالجة ، وتراه شديد المحاسبة لنفسه ، لا يعزب عن باله لومها وعتابها ؛ بل لا يفتأ يهذبها ويصلحها ، فالله مطلع بعلمه الواسع على أفعاله ، لا تغيب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وهو اللطيف الخبير .

وبعد أن انتهى من الحديث عن أمور العقيدة ، يشرع فى دعوته إلى العمل والتطبيق ، فكانت البداية مع الصلاة :

يا بنى أقم الصلاة . . فهى العروة الوثقى ، والقاعدة الكبرى ، والركن الركين، والأساس المتين . . وهى الإيمان فى جوهره ، وهى الإسلام فى مظهره ، وهى التى تفرق بين مسلم وكافر ، وبين طائع وفاسق .

يا بنى أقم الصلاة . . فهى صمام الأمان يوم القيامة ؛ فإن صلحت صلح العمل كله ، وإن فسدت فسد العمل كله . . وهى التى تمنح صاحبها إشارة القبول ، وعلامة الرضا ، وصك الغفران ، وإذن الدخول ، والتمتع بدار النعيم والخلود .

يا بنى أقم الصلاة . . فهى التى تبعد المرء عن صخب الحياة وضجيجها ، ولهوها ولغطها ، وكدها ومرها ، ولفحها وسعيرها . . تأخذه من سوق الدنيا المزدحم الهالك إلى واحة الأمن ، وظلال الأنس ، وإلى أنسام الرضوان ، وأرائج القبول والغفران ، وإلى طمأنينة النفس ، وسكينة الفؤاد . . تأخذه الصلاةُ بعيداً بعيداً . . حيث يناجى ربه ، ويخاطبه ويكلمه ، ويقف بين يديه . . يركع ويسجد ، ويسبح ويحمد ، ويهلل ويكبر . . ويعرض بين يدى خالقه شكواه ، ويُقدم رجاءَه ومُناه . . ويظل مناجياً حتى تستريح نفسه ، ويطمئن قلبه ، ويعود للحياة مرة أخرى كأنه خلق جديد !

يا بنى أقم الصلاة . . لا تتهاون فى أدائها ، ولا تفرط فى خشوعها ، ولا تقصر فى تمامها وكمالها . . حافظْ عليها كل حفظ ، واهرع إليها كل وقت ، واجعلها ظَرفك الأول والأخير ، وهمك الدائم والوحيد ، وعملك الذى لا ينقطع ، وشغلك الذى لا ينتهى . . ولتكن راحتك وقرة عينك ، وخاطرك وهاجسك ، وسمتك ورسمك ، ومظهرك ومخبرك ، وسرك وعلانيتك ، وخلقك وسلوكك . . اجعلها حياتك كلها ، فهى تستحق أن تكون هى الحياة ، وإن كانت أغلى من كل شىء !

لا يجب على الأب أن يغفل عن دعوة ابنه إلى الصلاة لحظة واحدة . . هذا إن كان يحبه حقاً ، وإن كان يخاف عليه من الضياع والحرمان .

هناك من الآباء من يحرص على أكل ابنه وشربه ، وزيه ولبسه ، ومرحه ولعبه ، وصحته وعافيته ، وتقدمه فى مدرسته وتفوقه . .

قد يُقيم الدنيا ولا يقعدها حين يرى خللاً فى أى جانب من هذه الجوانب ، وقد يغضب أشد الغضب ، ويثور ثورة الأسود ، ويَقتل نفَسه هماً وغماً ، كأن الدنيا قد ذهبت من بين يديه ، وكأن الحياة قد اسودت أمام عينيه . . وقد يمرض ، وقد ينذر للرحمن صوماً فلا يكلم إنسياً !

يفعل كل ذلك من أجل أمور دنيوية ، ولكنه لا يأبه إن فرط ولده فى الصلاة ، ولا يعبأ إن هجر بيوت الله ، ولا يحرك ساكناً حين تنتهك حرمات الله .

إنه خطأ جسيم ، وفعل شنيع ، وزلة يقع فيها كثير من الآباء . . ولو أنهم فعلوا كما فعل « لقمان » حين دعا ابنه إلى إقامة الصلاة لكان خيراً لهم ولأبنائهم ، ولكنه حب الدنيا ، والبُعد عن دين الله .

وبعد إقامة الصلاة يدعو ابنه إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن يصبر

على نوائب الدهر : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ .

يدعوه لأن يكون مصلحاً هادياً ، وأن يعمل المعروف ويأمر الناس به ، ويتجنب المنكر وينهاهم عنه . . وأن يَختلط بالناس لا يعَتزل ، وأن يَنصح لهم لا يَنزوى ، وأن يتمرس على ذلك من الآن لا يَخجل ولا ينطوى .

يريد له إيجابيةً ملموسة لا سلبية ممقوتة ، ومشاركةً حية لا تبعية مميتة ، ومحاربةً للباطل بلا خوف أو تهيُّب . . وعندها يدور مع الحق حيث دار ، وينصره حيث استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وحين ندعو أبناءنا إلى أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، وأن يصبروا على ما يصيبهم من عوادى الدهر وتقلبات الزمان . . فإننا نُكسبهم جرأةً مبكرة ، وشجاعة فَتِيَّة ، وقيادة ناشئة ، وبصيرة نافذة ، وحكمة قد يعانى من فقدها الكبار !

ثم يُنفره من الكبر والتعالى ، ويحببه فى اللين والتواضع ، فى صورة حية ، وتشخيص بالغ : ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾

وأن يلوى المرء عنقه ويدير خده كبراً ، وأن يمشى فى الأرض متبختراً متعالياً ، وأن يمارس على الناس نوعاً من الفوقية بغيضاً ، وشكلاً من الاستكبار مقيتاً ، وأن يجعلهم دونه ، وأن يمنحهم استهزاءً واحتقاراً ، وأن يوقعهم تحت وطأة صلفه وسطوته ، وظلمه وفتكه . . إنه آنئذ من الذين يعانون نقصاً شديداً فى ذواتهم ، وشكاً مريباً فى قدراتهم ، وعيباً معيباً فى شخصياتهم .

لا يمارس الكبر إلا من أحس خللاً فى نفسه ، واضطراباً فى ثقته ، فيلجأ إلى التعالى عوضاً عن الذلة والصغار .

كم من الآباء من يُعوِّد ابنه منذ صغره على الكبرياء ؛ فيظل الولد يفتخر بوالده وإخوته وأهله أجمعين ، ويتعاجب بثراء أسرته وعلو مكانتها ، بعد أن أفهمه أبوه أنه ينتمى إلى أشرف بيت ، وأعظم عشيرة ، وقد يكون ذلك مما يحسبه الظمآن ماءً !

قد لا يشعر ولدك وهو صغير أن الكبر صفة ذميمة ، غير أن تشجيعك على أن يمارسه بين أقرانه لهو أمر فى غاية الخطورة ، وقمة الانحدار .

عَوِّدْ ولدك على التواضع حتى يكتسب كثيراً من الثقة بنفسه ، وكثيراً من الاعتماد عليها ، بدلاً من أن تُعايشه جواً من الخيالات والشطحات ، فيصحو يوماً وقد هَوَتْ قدماه إلى الحضيض ، وعندئذ لا ينفعه مجد تليد ، ولا أسرة ذات مال وجاه .

وما أعظم « لقمان » وهو يعلم ابنه كيف يمشى ؟! وكيف يتكلم ؟!

﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾

يأمره بالتوسط فى المشى ؛ فلا بطء ولا إسراع ، ويأمره كذلك بخفض الصوت عند الكلام ، فإنَّ رفع الصوت لا يجمل بالحكماء العقلاء .

وقد يتهاون الآباء فى هذه الأمور حين ينصحون أبناءهم ، ولكنها هامة جداً فى إضفاء المهابة ، وإكساب الشخصية كثيراً من الوقار ، وإصباغها بصبغة التقدير والاحترام .

ما أعظم القرآن وهو يسجل وصايا « لقمان الحكيم » ! وما أعظمه حين يُعلم الناشئة كيف يمشون ؟ وكيف يتحدثون ؟!

قد نُعدُّ ذلك من الأمور البسيطة الهينة ، ولكنها فى دنيا الذوق الرفيع والتحضر الراقى لمنَ القواعد الأساسية والسلوكيات الهامة !

وَيْلَكَ آمِنْ

القديم والجديد يتقابلان فى هذا المشهد النابض ، والآباء والأبناء . . فى صراع يتجدد ، وتضاد لا يلتقى . . فيه يغتر الأبناء بالأمل العريض ، والتطور المتلاحق ، وفيه يتشبث الآباء بماض تليد ، وتصورات لا تتبدل ولا تتحول . . والحياة ماضية فى تدفق عجيب ، وحركة لا تهدأ . . صبح يتنفس ، وليل يغشى . . شمس تسطع ، ونجم قد بدا . . أرحام تدفع ، وقبور تبلع . . وقديم اليوم جديد الأمس ، والإنسان هو الإنسان ، قد يتغير فكره ، ويتطور علمه ، ولكن ثوابت القيم ، وعقائد الإيمان تضرب بجذورها فى أعماقه ، وتسرى فى عروقه وأوشاجه ، لا ينفصم عنها إلا ذو خلل فى فكره ، أو عطب فى فطرته وإنسانيته !

وهنا الأب والأم يتجاذبان ذلك الابن العاق ، الفار من فطرته ، والهارب من وجوده وحقيقته . . لا يكف عن عقوقهما ، ولا ينصت إلى نصحهما ، ولا يستجيب لداعى الإيمان ، ظاناً أنهما يمثلان القديم ، والقديم لديه أساطير وتخاريف . . وهو يريد الانطلاق والتحرر ، ويرغب فى الانسلاخ من كل شىء ؛ حتى من ذاته ، وحتى من حقيقة وجوده ، ولكنه لا يدرى أنه عند انسلاخه ليحلِّق ؛ فإنه لن يحلِّق ، ولن يطير ، غير أنه سيخرّ من علٍ ، فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق !

والأبوان يستغيثان الله : ﴿ وَيْلَكَ آمِنْ ﴾ . . فهو ـ ما انفك ـ قطعة منهما ، وها هى تضيع من أيديهما ؛ لتهوى فى قعر جهنم ، وهما يرغبان نجاته وإنقاذه ، ويطمعان فى إيمانه واستقامته ، ولكنه عَصىّ شَقىّ ، جاحد كل الجحود ، ماض فى

طريقه غير آبه [1] ، وسائر فى فسوقه غير عابئ . . لا يلوى على أحد ، ولا يلين لاستغاثة أم أو والد !

وهو ينكر البعث . . فقد خلت القرون من قبله ، ولم يرجع أحد ، غير أنه لا يعلم أن هنالك أجلاً لا ريب فيه ، وأن البعث والجزاء حق لا شك فيه .

تأمل هذا الحوار البسيط العميق ، وتأمل هذه الدعوة الصادقة من أبوين مؤمنين لابن جاحد : **﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾** [2] .

وهذه صورة مكرورة كل آن ؛ فى العصور التى سلفت ، وفى العصور التى نحياها . . تتكرر بأشكال متعددة ، وأنماط متفاوتة . . وقد يكون هذا الحوار منطوقاً ، وقد يكون صامتاً ؛ تتولاه القلوب ، وتعبر عنه الأبصار !

هذا ابن قد هجر دين أبويه ؛ ليرمى بنفسه فى أحضان الإلحاد والتفسخ ، وعَدَّ الدين طقوساً متوارثة ، ومسوحاً لاهوتية ، تتبدل كما يتبدل الثياب ، وتتغير حسب الميول والطباع !

فتراه يعتبر نفسه عصرياً ، حين ترك الدين وراء ظهره ، واستقبل عصره بكل ما فيه ، فاتخذ إلهه هواه ، وحكم على عقيدة أبويه بالجمود والتقوقع ، والغرابة والتقزز [3] . . وطار فرحاً بدنياه الجديدة ، وحريته التى لا يعوقها مبدأ ولا دين . . وانطلق فى فضاء إبليس ، فاصطدم ـ وهو يحلّق ـ بخواء مرير ، وشبح رعيب ؛ ليخرج من ضياع إلى ضياع ، ومن شتات إلى شتات ، ومن دوار يلفّ الرأس ، فيوقعه إلى الأرض ، لا يقوم إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس !

(1) غير مهتم .
(2) الأحقاف : 17 .
(3) الضيق .

وهذا ابن قد عاب على والديه أخلاق الطيبة والصفاء والطهارة ، وعدّها ضعفاً لا يناسب العصر ، وحاجزاً يحول دون مغانم دنيوية ، ومكاسب مادية ، ولهث وراء كذب أبيض ـ وما هو بأبيض ـ وخيانة تبلعها مصالح شخصية ، وسريرة تتزاحم فيها حقد وطمع ونفاق كالح بغيض . . ويعدّ ذلك تطوراً ، غير أنه أساطير المحدثين !

وكم من ابن تراه مسلماً ، بيد أن داخله يرفض أبويه ، يرفض هيئتهما وطريقة حياتهما ، فيثور قلبه ، ويغلى صدره ، وتأخذه النفخة الكاذبة ، والكبرياء الفارغة ، خاصة حين يتقدم فى شهادات ورقية ، وألقاب اجتماعية ، وتراه يتعجل موتهما ، ليتفرغ لحياته العصرية الصاخبة . .

ويشرع يربى أبناءه تربية أخرى ، يرغب فى تعويضهم ما فاته ، فينشأ ناشئ الفتيان منهم على الترف والسرف ، واللهو واللعب ، غير أنه يفجأ بجحود لا يتصوره ، وعقوق يصفعه ليل نهار ، فيندم على الزمن الأول ، ولات حين مندم !

هناك من الأبناء من يعدّ فعل الآباء أساطير الأولين ، ليس ذلك شرطاً فى الدين والعقيدة ، كما جاء فى نموذج القرآن ، ولكنه قد يقع فى تصورات شتى ، ونظريات متعددة ، وقد يحصل ـ كذلك ـ فى أخلاقيات ثابتة ، ومبادئ راسخة . . وأضعفه ما يكون فى طرائق العيش ، وأساليب الحياة .

غير أن العقيدة التى فطر الله الناس عليها ، والخلق الرفيع الذى ترقى به النفس ، والمبادئ الصحيحة التى يطلبها العقل . . هذه الأشياء لم يصنعها الآباء ابتداءً ، ولم تكن من زرعة الأقدمين ؛ حتى نخلعها متى شئنا ؛ ولكنها ثوابت راسخة ، تتعلق بوجود الإنسان وحقيقته ، وتمتزج بذاته وكيانه ، متى كانت فطرته سليمة ، وعقله غير مضطرب !

إننا نستطيع أن نرفض فكر الأقدمين ، ونستطيع أن نغير من نمط الحياة ، ونقدر على التطور والتغيير ، ولكننا لا نقدر أبداً أن ننسلخ من القيم الثابتة ، والمبادئ الراسخة ، إلا إذا أردنا العرى ، والعرى تستسيغه الفطرة المعوجة ، والقلب المنخوب !

وحين يقبل كثير من الشباب الآن على الحياة المادية ، ناسين اليوم الآخر ، غافلين عن البعث والنشور ، غير محتفلين بالإيمان والعبادات . . فإنهم عندئذ يمارسون نوعاً من التفريط الهالك ، والتقصير الذى يورد الردى ، ويجر إلى عذاب شديد .

ويلكَ آمنْ . . كلمة صادقة نبعت من قلب طهور ، تلقاها الابن بكل هزء وعُنجهية ؛ لأنه لا يدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكنه يدرى شيئاً واحداً ؛ هو التحرر والانطلاق . . تحرر يستغرق أنفاساً معدودة ، لا يقدر خلالها أن يتمتع بشىء ، كما لا يقدر الظمآن أن يطفئ عطشه حين يرى السراب ، فمنَّى نفسه ، وسال لعابه ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الله عنده فوفّاه حسابه ، والله سريع الحساب .

ويلكَ آمنْ . . فلا يجرنَّك بطش الشباب ، وطيش الفتوة . . إلى تيارات الهوى ، وتقَلبات الفكر ، ونزوات النفس ، فتغرق فى أمواه هالكة دوّارة ، لا تخرج منها أبداً ؛ فهى ظلمات بعضها فوق بعض ، وضياع من بعده ضياع !



عبس وتولى

ما أشد هذا العتاب ! وما أغضبه وأقساه ! فى أمر كان الرسول فيه مجتهداً ، غير قاصد ولا متعمد ، وفى حادث عابر يتعلق بفرد واحد وليس جماعة أو أمة ، ولم يستغرق العبوس ولا الإعراض سوى لحظة واحدة ، بيد أن السماء تحركت ، والوحى نزل ، وغدا قرآناً يُتلى ؛ الخطاب فيه موجَّه على صيغة الغائب لوماً وعتاباً، أو تلطفاً وإشفاقاً ، كأنه يتحدث إلى شخص آخر ، وإلى نبى قد مضى ، كأنه يتحدث عن موسى وعيسى أو نوح وإبراهيم عليهم الصلوات والتسليم . . ولكنك تَفجأ حين تعلم أنه يخاطب نبيه الكريم محمداً ، ويعاتب حبيبه وخليله ، ويلوم من أرسله رحمةً للعالمين !

وسبب ذلك أن رجلاً أعمي هو ابن أم مكتوم جاء إلى النبى - ﷺ - يريد أن يعلمه مما علمه الله ، والنبى منصرف إلى بعض من عظماء قريش يدعوهم إلى الدين الجديد ، فكره الرسول وقت مجيئه ، وغضب من إلحاحه وتكراره ، فعبس فى وجهه وأعرض عنه ، فنزل : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ① أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ④ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ⑥ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ⑦ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ⑧ وَهُوَ يَخْشَىٰ ⑨ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ⑩ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ⑪ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ⑫ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ⑬ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ⑭ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ⑮ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (1).

والأسباب منطقية فى إعراض الرسول وغضبه :

(1) أنه لم يكن منصرفاً إلى ذاته وشخصه ؛ بل كان مشغولاً بأمر دعوته ، وتبليغ رسالته .

---

(1) عبس : 1 - 16 .

(2) أن وقت مجيء الرجل لم يكن مناسباً ؛ فالرسول منهمك فى وعظه ونصحه ، وعلى القادم أن ينتظر قليلاً إن كان يريد التعلم والتفقه .

(3) أن الفائدة المرجوة من إسلام هؤلاء الزعماء أجدى وأحرى من الفائدة المرجوة من تعلم هذا الرجل ؛ فهؤلاء هم صناديد قريش ، وهم الذين يديرون دفة الأمور فى كل شؤونها ، وهم الذين يكيدون للدين الجديد ويمكرون ، ويصدون الناس عنه ويعذبون ، ولو أسلموا لأسلمت قريش كلها ، ولو أسلمت قريش لأسلمت الجزيرة العربية جميعها .

(4) أن الرسول ـ ﷺ ـ لم يكن يعظ هذا الرجل ثم تركه وانصرف إلى هؤلاء الزعماء؛ بل كانت الدعوة من بدايتها خاصة بهم ، ومجيء الرجل كان عرضاً أثناءها .

(5) أنه ـ ﷺ ـ كان يعسر عليه تفويت هذه الفرصة ، التى يصعب تكرارها ؛ من أجل رجل واحد قد تدخل دون صبر أو انتظار .

(6) أن العبوس هنا يصدر عفوياً ، فالرجل ألح وكرر ، والرسول مشغول أى إشغال، وهذه طبيعة بشرية ، والرسول بشر يُوحى إليه .

(7) كأن الرجل كان يريد دعوة خاصة ،ولو أنه استمع إلى كلام الرسول ووعظه لكان فيه من التعلم والتفقه ما ينفعه .

إذاً لماذا هذا العتاب الصارم ؟! ولماذا هذا اللوم الشديد ؟!

ليس الأمر على ظاهره ؛ بل يتعلق بجوهر هذا الدين وحقيقته ، ويرتبط كذلك بطبيعة دعوته ورسالته ، فليس الأمر بهذه البساطة ، وليست هذه الأسباب التى ذكرناها آنفاً هى المعول ؛ بل ظاهرية لا يسرى فيها روح الدين ونبض رسالته الخالصة .

قد تكون هذه الأسباب منطقية جد منطقية لو أن الأمر لا يتعلق بالأغنياء والفقراء ، ولا يتعلق بالتصورات الأرضية التى صنعها البشر من تلقاء أنفسهم دون دليل أو برهان .

فلم يكن معقولاً أن يجىء هذا الدين الجديد ليزلزل أركان هذا المجتمع الجاهلى القائم على العصبية والطبقية ، والمتجزئ إلى أسياد وعبيد ، والمتأصل على التعالى والأنفة والصدود ، والظالم للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان .

لم يكن معقولاً أن يجىء هذا الدين ليغير هذه التصورات الخاطئة ، وهذه العنصرية الهالكة ، ليحل محلها تعاليم ربانية تُنقِّى المجتمع من أوشاب هذه التفرقة البغيضة ، وتطهره من دنس الظلم ورجس التمايز القائم على الشكل واللون ، أو المال والجاه . . لم يكن معقولاً أن يجىء بهذا كله ثم يُمرر هذا الموقف البالغ .

والرسول ـ ﷺ ـ هو النموذج الأعلى الذى استطاع أن يمحو هذه التفرقة وتلك العنصرية ، واستطاع كذلك أن يهدم بنيانها من القواعد ، وكان دائماً حريصاً كل الحرص أن يُقيم الناسُ فى مجتمع الإسلام الجديد تصوراتهم ومقاييسهم على أساس من التقوى والإيمان دون أدنى اعتبار لجنسٍ أو لون .

وتحمل ـ ﷺ ـ عبء هذا التغيير الصعيب ، فى مجتمع شديد التمايز ، أصيل فى طبقاته القائمة على النسب والحسب ، والشكل واللون .

وكانت النتائج باهرة ، والثمار أشد نضجاً وأحلى طعماً وأبهى زينةً ، فتآلفت القلوب وامتزجت وانصهرت فى بوتقة هذا الدين الجديد ، فخرج جيل لا يعرف اللون والشكل ؛ بل يعرف الإيمان والتقوى .

كان الرسول ـ ﷺ ـ يعلم هذه الحقيقة ، وكان حصناً حصيناً للفقراء الضعفاء ، وكان يتألم حين يراهم يعذبون ، فيدعوا لهم ، ويبذل كل شىء من أجل خلاصهم وراحتهم ، فيأمرهم بالهجرة تارة ، وبالصبر تارات أخرى .

وكان يعلم كذلك أن زعماء قريش هم لب المشكلة ، وأن إسلامهم هو فتح كبير للإسلام والمسلمين ، وفيه خلاص لهؤلاء الضعفة من الإيذاء والتعذيب .

لذا كان حريصاً على دعوتهم ونصحهم دون إغفال أتباعه من الفقراء والعبيد ، وكان يأسف حين يرى دعوته تحارب من القريب والبعيد .

صحيح كل ما قلناه ، ولكن أصح منه أن يهتم الدين الجديد بمن يهتم به ؛ فالرجل قد أتى يسعى ، وهو يخشى ، راغباً فى التعلم والتبصر ، طامعاً فى الثواب والجزاء ، يبحث عن تعاليم دينه الجديد ، يحرص عليه ويتمسك به ، وهو فى الوقت ذاته رهن الإشارة ، قد سلم أمره إلى ربه دون نفاق أو رياء ، فاستحق الاهتمام والإحتفاء دون هؤلاء الصناديد الذين لا إخلاص لهم ولا قرار ، ولا نية فى الإسلام ولا عزم ، لا يُرجى من ورائهم خير سوى الجدال والمحال .

فهل يُحتفى بهؤلاء ولا يُحتفى بذلك الذى جاء يسعى خاشعاً مستسلماً ؟! لذا كان العتاب ، وكان اللوم من الله إلى رسوله العظيم .

هذا الرجل فى ميزان الله وفى ميزان هذا الدين خير من هؤلاء الذين يهتم الرسول بوعظهم ونصحهم ، فهو حين يُسلم ينال من الاعتبارات ما يجعله ـ فى نظر هذا الدين ـ أعلى من صناديد قريش وعظمائها جميعاً !

إن هذا الدين العظيم يريد أن يكون إقبال العباس بن عبد المطلب كى يعلن إسلامه ويتفقه فى الدين تماماً كإقبال ابن أم مكتوم سواء بسواء ؛ هذا يتجرد من نسبه وحسبه ، وذاك يتجرد من فقره وعماه ، كلاهما يتزيًا بلباس الإنسانية ، ويلتحف بقيمها ومعاييرها .

وهذه نظرة صافية للإنسان ، وقمة سامقة من التحضر والتبصر ، يتطلع إليها أهل الأرض فى كل حين وآن .

وأكْبَرَ الناسُ حضارةَ الغرب ، وخالوها سبَّاقة إلى ما يُسمى الآن حقوق الإنسان ، وهم قد فُتنوا بها وحاكوها ؛ ظنّاً منهم أنها منارة يتدافعون للوصول إلى قمتها ، فإذا لمسوها بأيديهم لمسوا تراباً ، ووجدوا أنفهسم يَحْبُون على أرض حَمِئة [1] ، ومستنقع آسن ، لا خروج منه ولا نجاة ، ولا نهوض فيه ولا قيام ، بلْ تلبُّط من بعده ضياع وهلاك !

إنها دعوى كاذبة ؛ أن يَدَّعوا أنهم رافعو لواء الذود عن الإنسان ، وأنهم المنافحون عن حقوقه فى شتى الأصقاع ، وأن عالم الشرق لا يفقه شيئاً فى هذا الأمر ، وأنه مفرط فى إنسانيته ، وأنه يلهث وراء حضارتهم .

قد يكون ذلك صحيحاً حين ينظرون إلى أفعال بعض المسلمين ، وهم يتخبطون شرقاً وغرباً وبعيداً عن جوهر الإسلام وحقيقته ، وينغمسون فى وحل الأهواء والأطماع ، ويقعون تحت وطأة الاستذلال والاستجداء .

بيد أن الإسلام كان عظيماً حين صان حقوق الإنسان منذ جاء ، وضمن إنصافه ، وحافظ على عرضه وماله حتى ولو كان كافراً طالما أنه غير محارب .

ألم ينهَ عن قتل الأطفال والنساء فى حربه مع الكافرين ؟! ألم يحرم التعذيب والتمثيل ؟! ألم يمنع الإكراه حتى فى مجال العقيدة والإيمان ؟! ألم يدعُ إلى العدل حتى مع الذين نبغضهم أشد البغض ؟! ألم يرفع لواء الفقراء ، فجعل لهم شأناً بعد أن كانوا نسياً منسياً ؟ !

وفى هذا الدرس البالغ ألم ينزل الوحى ، وتمور السماء [2] موراً ؟ أنْ عبس رسول الله فى وجه رجل ؛ لأنه انشغل بدعوة العظماء من قريش دون الاحتفاء بذلك الخاشع الذى قد جاءه يسعى . .

(1) كثيرة الحمأة ، وهى الطينة السوداء .
(2) تحركت بسرعة .

حتى فى مجال الدعوة ، وفى عمق مصلحتها . . وفى توقيت غير مناسب ، وإلحاح وتكرار من ذلك الأعمى . . فى كل هذه الاعتبارات رفض الإسلام المساس بمشاعر هذا الرجل ، وعدم الاهتمام بإنسانيته الاهتمام اللائق بها ، بغَض النظر عن مبادئ الأرض ، ومقاييس الناس .

لم يكن العربي فى جزيرة العرب يحلم بذلك السمو الإنسانى ، وهذا التقدم الحضارى ، وهو ينظر إلى جموع الناس ، فيرى الإسلام يضع فلاناً ، ويرفع آخر على أساس من القبول والإرضاء ، وعلى أصلٍ من التعقل والإفهام .

إن المسألة ليست مسألة عبوس ، أو مجرد إعراض عن رجل أعمى ، وليست المسألة فردية عابرة ؛ بل هى من صميم المنهج الربانى ، وفى جوهره ولبه ؛ فالله سبحانه لا يريد تسويد طبقة على طبقة ، ولا لون على لون ، ولا أن يُضفى على الأغنياء مسحةً من الإجلال والإعظام مع قلة الاكتراث بالشُّعْث الغُبْر ، ولا أن يُنظَر إلى إسلام هؤلاء على أنه أجدى وأنفع من إسلام هؤلاء ، فالله فى غنى عن العالمين ، وليس فى حاجة إلى ذود أحد عن دينه ، أو تقوية هذا الدين ومناصرته . . فهو سبحانه بيده كل شيء ، وقادر على كل شيء ، لا ينظر إلى الصور والأشكال ، ولا إلى المال والجاه ، بل ينظر إلى قلوب عباده ، ويرضى لهم الدين والإيمان .

وهو سبحانه قد كرم عباده على أساس من التقوى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [1] ، فهذه قاعدة تنسحب فى مدلولها على الناس أجمعين ، دون أدنى استثناءات .

والإسلام حين يقرر ذلك يكون قد أسدى للبشرية حلمها الأبدى فى العدل والمساواة ، ويكون قد أراح الإنسان من اعتبارات لا دخل له بها من مال ولون وجاه ، فهذه ظروف نراها جبرية يمنحها الله لمن شاء دون مزية أو إكرام . . وهى

(1) الحجرات : 13 .

أيضاً عرضية تذهب وتجيء ، لا نقدر أن نُقيم على أساسها حكماً ، ولا نستطيع أن نجعلها معياراً للتفاضل والتمايز .

والفقر فى ذاته ليس منقصة ولا معابة ، كما أن الغنى فى ذاته ليس محمدة ولا كرامة ، والنفس السوية العادلة لا تمنح ذاك احتقاراً ، ولا تهب هذا إجلالاً وإكباراً، بل تقيس ضوابط العطاء فى كل منهما على أساس من النفع والإصلاح .

فهذا الفقير الذى تزدريه أعيننا غنى فى مواطن كثيرة ؛ فى نفسه التى يعرف قدرها دون انتفاخ أو مزايدة ، وفى طموحه النامى المتطلع أبداً إلى كثير من الثقة والإثبات ، وفى نشاطه الدؤوب الذى لا يركن إلى كسل أو خمول ، وفى البحث عن جوانب أخرى غير المال يسمو بها ويرتقى ؛ من خلق وعلم وإقدام .

وهو أيضاً كثير التضحية قليل الحرص ، شديد القناعة بغيض الطمع ، سريع الاستجابة ، قد استتم عدته واستكمل أُهْبتَه لداعى التغيير والتصحيح ، لعل فى ذلك مخرجاً له ومنجى .

إذاً هو كثير المنافع جليل الفوائد ، فلماذا نحكم عليه من زاوية ضيقة لا ذنب له فى رسمها ووجودها ؟! ولماذا كان المال دوماً هو المقياس الأعلى والأبرز للأفراد والمجتمعات ؟! مع هضم جوانب النفس والخلق والعلم دون أدنى اكتراث !

انظر إلى ذلك الشاعر القديم الذى لعن الفقر ، وصب جُلَّ غضبه على الفقير ، وراح يعدد مزايا الغنى ، وأن ذنوبه فى نظر الناس قليلة رغم أنها كثيرة جداً :

ذرينى للغنى أسعى فإنى ... رأيتُ الناسَ شرُّهمُ الفقيرُ
وأحقرهم وأهونُهم عليه ... وإنْ كانا له نسبٌ وَخيرُ
يباعدُه القريبُ وتزدريه ... حليلتُه وينْهرُهُ الصغيرُ
ويلفى ذو الغنى وله جلالٌ ... يكاد فؤادُ صاحبه يطيرُ
قليلٌ ذنبُه ، والذنبُ جَمٌّ ... ولكنْ للغنى ربٌّ غفورُ

لقد نال الغنى فى طول الأرض وعرضها من الاحتفاء والاهتمام الكثير ، فالناس دائماً يغضون الطرف عن ذنوبه وخطاياه ، فتراهم يُعدِّدونها ويُحصونها دون إغفال ، ومع ذلك لا يُغْفلون تبجيله وتقديره ، ولا يَنسون احترامه وتعظيمه ، كأن ذنوب الغنى غير ذنوب الفقير ، وكأن الغنى قد حصل على صكوك الغفران سلفاً ، فهو منعَّم فى دنياه وأخراه !

وهذا غير صحيح فى ديننا ، فالكل أمام الله سواء ، وليس هناك تفاضل إلا بالتقوى ؛ بل إن الغنى أشد محاسبة من الفقير ، فهو مسؤول عن ترفه وسرفه ، وعن ماله وغناه .

ومن صفوة القول أن هناك من الأغنياء من يُسدون للمجتمع الخير الكثير ، ويبذلون النفس والنفيس ، ولكن نظرة المجتمع يجب أن تكون عادلة وصحيحة ، فلا يُحتفى بقوم على حساب آخرين ، ولا نُبجل غنياً دون فقير ، بل الكل سواء ، والسبق يكون للخير والهدى والصلاح دون اعتبار لعوارض المال والجاه والسلطان .

صحيح أن النفس البشرية تركن إلى ذوى الشأن والمكانة ، وتستملح ذوى الزعامة والرياسة ، وتهوى أصحاب البشرة الناعمة والترف الآسر ، فهم من زينة الحياة الدنيا ومن فتنتها :

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ (1) .

﴿ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (2) .

﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَواةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (3) .

---

(1) القصص : 79 .
(2) الكهف : 28 .
(3) طـــه : 131 .

ولكن النفس البشرية تريد شيئاً ، والإسلام يريد شيئاً آخر ، يريد القيمة الحقة ، ويُلح على المبدأ الأصيل الذى لا تتعاوره الألوان والأشكال ، أو يعتريه الإفقار والإغناء .

فالإسلام يرغب فى مخاطبة الإنسان مجرداً ، فيخلع عنه كل ملابسات التصورات الأرضية الخاطئة ، ويخلع عليه كل ثوابت الإنسان وبواعث العدل والإنصاف .

يريده إنساناً هكذا . . فإنسانيته هى القيمة ، وهى المبدأ ، وهى الأصل الأصيل . . أما الغنى والفقر ، والزعامة والغفلة ، والشرف والضعة ، والعز والذل، واللون والشكل . . فكلها عوارض ومظاهر ، لا يقيم الدين لها وزناً أى وزن ، ولا يوليها اعتباراً ولو مثقال ذرة !

أرأيت ديناً قد احتفى بالإنسان كل هذا الاحتفاء ، وكرَّمه كل هذا الإكرام ؟! إنه الإسلام الدين الوحيد صاحب هذه النظرة الواعية ، وصاحب هذه المبادئ السامية ؛ لأنه من رب العالمين .

ومن العجب ، ومن التبجح والتوقح كذلك أن يطلب زعماء قريش من الرسول ـ ﷺ ـ طرد الذين آمنوا من الضعفاء ، حتى يتمكنوا من الجلوس معه والاستماع إليه ، فهم يأبون أن يجلسوا بجوارهم ، أو أن يشموا رائحة ثيابهم ، أو أن ينظروا إلى شَعَثِهم وغَبَرِهم .

إنه التميز الذى ألفه المترفون ، فقد تعودوا عليه ، وأعانهم المجتمع على تأصيله وتثبيته ، فظنوه حقاً من حقوقهم ، وفرضاً من فروضهم ، وضريبةً يدفعها المعذبون فى الأرض للسادة الظالمين .

إنهم لا يرضون مجرد الجلوس مع الفقراء الضعفاء ؛ كأنهم من طينة أخرى ، أو

من بقايا البشر ، أو عدوى يفرون منها ، أو أوباش يخشون مخالطتهم ومزاحمتهم !

إنها نفوس متبطرة تتعاجب بانتفاشها وانتفاخها ، لا تحسب وراء فوقها فوقاً ، مترعة بكبرياء فارغة ، متخمة بعنصرية بغيضة ، تزحمها عُنْجُهِيّةٌ لا قبول لها ، تحتاج إلى جهد جهيد لإخلائها وإفراغها ؛ كى تعود إلى سيرتها الأولى ، وإيقاعها المتناسق .

بيد أن القرآن كان عظيماً ، فلم يَنْهَ نبيه عن طردهم وحسب ، بل أمره ألا يصرف بصره عن هؤلاء الضعفة ، وألا يفارقهم قيد أنملة ، وأن يصبر على ذلك ، فالنفس قد جُبلت على مجالسة الأشراف ، وتركن إلى الحديث معهم : **﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾**[1] .

قال ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية :

« . . يقال إنها نزلت فى أشراف قريش حين طلبوا من النبى ـ ﷺ ـ أن يجلس معهم وحده ، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود ، وليفرد أولئك بمجلس على حدة ، فنهاه الله عن ذلك فقال : **﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾** ، وأمره أن يصبر نفسه فى الجلوس مع هؤلاء فقال : **﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾** ، وقال مسلم فى صحيحه . . عن المقدام بن شريح عن أبيه عن سعد هو ابن أبى وقاص قال : كنا مع النبى ـ ﷺ ـ ستة نفر ، فقال المشركون للنبى ـ ﷺ ـ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا ، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت

(1) الكهف : 28 .

اسميهما ، فوقع فى نفس رسول الله ـ ﷺ ـ ما شاء الله أن يقع ، فحدَّث نفسه ، فأنزل الله ـ عز وجل ـ : ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى . .

وقال الطبرانى . . عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال : نزلت على رسول الله ـ ﷺ ـ وهو فى بعض أبياته ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ ، فخرج يلتمسهم فوجد قوماً يذكرون الله تعالى منهم ثائر الرأس وجاف الجلد وذو الثوب الواحد ، فلما رآهم جلس معهم وقال : « **الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أصبر نفسى معهم** » [1] .

وهم يتهمون الفقراء بأنهم يتَّبعون الرسل طمعاً فى عز أو جاه ، ليس إيماناً بدعوته وتصديقاً لها ، فتنزل الآيات لتنفى عنهم النفاق والرياء ، فهم يريدون وجه الله ، ويبتغون رضاه ، ويذكرونه ويسبحونه بكرة وعشياً ، ثم لا أحد مطالب بالتنقيب عما فى قلوبهم ، ولا بالتحقيق فى نياتهم ، فالأمر كله لله ، وما على الرسول من حسابهم من شىء ، وما من حسابه عليهم من شىء ، وطردُهم يعنى ظلمهم ، وهذا ما لا يرضاه الله لنبيه ورسوله :

﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [2] .

ونوح أول الرسل يطلب منه زعماء قومه طرد الضعفاء الذين اتبعوه ، تماماً كما حدث مع خاتم الرسل ، فى تشابه عجيب ، وتكرار مماثل ، كأن قريشاً كانت هنالك ، وكأن الكفار يتواصلون فى عنادهم وكبريائهم على مر الأيام وكر الأزمان ،

---

(1) ابن كثير : 3 / 79 - 80 .
(2) الأنعام : 52 - 53 .

دون كبير اختلاف ، ودون تغيير أو تبديل . . بل تشعر كأن الألفاظ هي هي بلا تحريف :

﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (1) .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا (2) بَادِيَ الرَّأْيِ (3) وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي (4) أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (5) .

ومطالبة الزعماء بطرد الضعفاء ، وعدم إشراكهم فى مجلس واحد كشرط للاستماع أو الاستجابة ، فذلك من الخصوصية التى مردوا عليها دون وجه حق ، فهم قد ألفوا التفرد والتميُّز ، فكيف يجمعهم وهؤلاء العبيد مجلس واحد ، وتعاليم واحدة ؟!

(1) الشعراء : 111 - 115 .
(2) المراد الفقراء الضعفاء : 52 - 53 .
(3) بادى الرأى : أى ظاهره دون تفكير أو روية .
(4) تحتقر .
(5) هود : 25 - 31

فهم يأبون أن يخسروا هذا التعالى وذاك الازدهاء ، ويأبون كذلك أن يتنازلوا عن هذه النفخة الكاذبة التى صنعوها بأيديهم ، وصدقوا أنفسهم أنها حقيقة ، وما هى من الحقيقة فى شىء !

والغنى دائماً يتهم غيره بضعف الرأى وقلة التفكير ؛ فهو قد تميز عليه فى الشكل والمظهر ، فلا بد أنه متميز عليه فى الرأى والفكر ، وهذا مقياس خاطئ يتوهمه الزعماء والأثرياء والأشراف فى كل عصر وآن .

قال ابن كثير فى تعليقه على موقف قوم نوح :

« هذا اعتراض الكافرين على نوح ـ عليه السلام ـ وأتباعه ، وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم ، فإنه ليس يعار على الحق رذالة من اتبعه ، فإن الحق فى نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل ، بل الحق الذى لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء ، والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء ، ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس ، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته كما قال تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ** ﴾[1] .

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبى ـ ﷺ ـ قال له فيما قال : أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم ، فقال هرقل : هم أتباع الرسل ، وقولهم «بادى الرأى » ليس بمذمة ولا عيب لأن الحق إذا وضح لا يبقى للرأى ولا للفكر مجال ، بل لابد من اتباع الحق ، والحالة هذه لكل ذى زكاء وذكاء بل لا يفكر ههنا إلا غبى أو عيى ، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إنما جاءوا بأمر جلى واضح ، وقد جاء فى الحديث أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر فإنه لم يتلعثم** » أى ما تردد ولا تروَّى لأنه رأى أمراً جلياً عظيماً واضحاً فبادر إليه وسارع »[2] .

---

(1) الزخرف : 23

(2) ابن كثير : 2 / 424.

والسؤال الآن : لماذا يُسرع الفقراء دوماً إلى الإيمان بالرسل ؟ .

هل هى الرغبة فى التخلص من بؤسهم وشقائهم ؟ .

أم أنها محاولة للتخلص من سيطرة ذوى الترف والتفلت من قبضتهم واستبدادهم ؛ للانقضاض عليهم وسلب بعض ما فى أيديهم؟ .

أم أنه اليأس الذى ينتابهم ، فيهرعون إلى أول داع دون روية أو اتئاد ؛ فالدعوة الجديدة لن تكون بأية حال أسوأ مما هم عليه من الذل والهوان ؟ .

أم أنها مبادئ المساواة والعدل والإخاء التى ينادى بها الدين الجديد ، ويرغب فى بسط ظلالها على وجه هذه البسيطة ، بعد أن احترقت بنيران الظلم والاعتداء والاضطهاد ؟

أسباب واهية ، وتعلات لا أصل لها ولا فرع ، يرددها ذوو الشأن والجاه كل آن ، ولكن الله سبحانه قد حسم هذا الأمر ، ونصَّ على أنهم « يريدون وجهه » .

إنه المقياس نفسه ، مقياس المادة والمصلحة والمنفعة ، يبنى عليه الأشراف والأثرياء حكمهم وبرهانهم ، ويتشكل من خلاله إفكهم وبهتانهم ؛ فعندهم كل شىء بالدينار والدرهم . . هكذا تعودوا ، وهكذا ينظرون إلى الأشياء فى هذه الحياة الدنيا .

حتى الرسول نفسه لم يسلم من إفكهم هذا ، فخالوه يريد سلطاناً أو جاهاً أو مالاً ؛ فهو يتيم فقير ، كما أن الرسالة ـ وهى شرف عظيم ـ لا تكون إلا على رجل من القريتين عظيم ، فليس للفقراء ـ من وجهة نظرهم ـ خلاق [1] ، وليس لهم أن يتميزوا أو يتقدموا ، بل هم فى الساقة[2] دائماً ، وفى المقاعد الخلفية فى مسرح الأحداث .

---

(1) نصيب وافر .
(2) المؤخرة .

حتى حين طلبوا من الرسول خوارق ، كانت تدور حول المادة والمنفعة ، دون تدبر فيما يدعو إليه ، ودون إعمال ذهن أو إفهام :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (1) .

إنه منطق أعرج ، وفلسفة عمياء ، فالفقير الذى خضع لسلطانهم ، وتجرع مرارة جشعهم واستبدادهم ، يأتيه الظلم من كل مكان ، وما هو بمنتصر ، ولكنَّ بَغْيَ الأسياد شديد !

الفقير الذى ألف التنفيذ دون التعليل ، والسمع دون الحديث ، فلا ينبس ببنت شفة ، ولا يبصر سوى موضع قدمه . . هذا الضعيف حين يؤمن بمن يُقويه ، ويستجيب لما يُحييه يكون ساعتئذ بادى الرأى بلا روية !

وهل الروية وعمق الرأى فى تجرع الظلم ، وتحمُّل العدوان ، وأن يظل فى ذيل القافلة ومؤخرة الركب ؟!

إن التبصر كل التبصر أن يعرف ربه الخالق ، وأن يخضع له ويعبد ، ويخشع وينيب ، ويتعلم ويتفقه ، فيستعلى بإيمانه ، ويعتز بإسلامه ، ويعلو صوته ، ويَحيى قلبُه ، ويصدع بالحق ، ويتشبث بالعدل ، وينزع الخوف نزعاً ، ويشق ثوب الخناعة شقاً ، ويثوب إلى رشده بعد أن كان نسياً منسياً !

إن الجواب الذى لا معدى عنه أن الفقير الضعيف يُقبل على دين الله فى بدايته دون تردد لأنه غير مثقل بجواذب الأرض ولذائذ الشهوات والنزوات ، فهو خفيف

(1) الإسراء : 9 - 93.

المحمل، بسيط المتاع ، طليق الخطو ، خليّ البال ، لا تصده زعامة ، ولا تمنعه مكانة، ولا يُثقله جاه ، ولا يتشبث بمكاسب يخشى عليها الضياع .

إنه يحتاج فقط إلى من يأخذ بيده ، فيخطو الخطوة الأولى ، ثم تراه سبَّاقاً ، فقد فك قيده ، وانفلت من أسره ، يرفرف بلا عوائق ولا أثقال .

والفقراء دائماً هم حاملو لواء الدعوة حين تكون فى بدايتها ، وحين تكون مضطهدة ، يلاطمها الموج وتناوحها الريح ، يتألب عليها الناس من كل حدب وصوب ، يحاولون قص أجنحتها وهى تنبت ، وما هم بقادرين ؛ فهى تنبعث من أعماق هؤلاء المتجردين ، تختلط بدمائهم وأرواحهم .

ويتحمل الفقراء العبء الأكبر دائماً ، فيُصبّ عليهم التعذيب صبّاً ، وتعمل فيهم يدُ التقتيل والتمثيل ، ويتجرعون ويلات يتبعها تضحيات وتضحيات ، وهم فى كل ذلك « يريدون وجهه » ويبتغون الأجر والمثوبة .

غير أنه عند نضج الثمرة ، وقرب النجاح ، وموكب النصر يتراءى قمة من بعدها قمة . . عندئذ تُهضم حقوق هؤلاء الفقراء هضماً ، وتعود الوجاهة مرة أخرى إلى أصحاب الوجاهة !

صحيح أن الميدان ميدان أجر وثواب ، لا ميدان غنائم ومغانم ، وأن الكل يتطلع إلى رضوان الله سبحانه دونَ أدنى اكتراث بمكاسب دنيوية ، أو عطاءات وقتية ، وأن الجنة هى سلعة الله التى يتسارع المؤمنون جميعاً إلى شرائها والفوز بها ، بعد أن جاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .

هذا صحيح ، ولكن العدل فى الدنيا من صفات المؤمنين ، والمحاباة بعيدة كل البعد عن هذا الدين ، وتقديم المترفين فى المناصب والقيادات دون المتعبين الذين تحملوا وعثاء الطريق والدعوة فى مهدها أمر بغيض كريه .

والنبى - ﷺ - ومن بعده الخلفاء الراشدون كانوا هم النموذج الأمثل فى مراعاة جانب الفقراء المغمورين عند توزيع المكاسب والقيادات ؛ بل والأوحد كذلك !

والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة ، تمتلئ بها كتب السيرة ، ويزخر بها تاريخ الخلفاء الراشدين ، سواء فى قيادة الجيوش ، أو التفضيل والاحتفاء ، أو حتى فى الشؤون الاجتماعية من زواجٍ وغيره .

وحين تولت الدولتان الأموية والعباسية مقاليد الأمور ، انزوى الفقراء والعبَّاد والزهاد جانباً ، ولم يأبه بهم أحد ، وآلت المغانم المادية والمعنوية إلى ذوى النسب والحسب ؛ بل إلى أسرة بعينها ، وإن كان الخير وقتها عميماً ، والعدل قائماً ، والإسلام هو الشرع وهو الحكم .

وأسلم شيء لهؤلاء المغمورين ، الذين لا يُشار لهم بالبنان ، والذين يُخلصون لدعوتهم ودينهم كل إخلاص ألا ينتظروا جزاءً فى هذه الحياة الدنيا ، وأن يتعاملوا مباشرة مع الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وحسبهم أنهم يوم الدين أوفى أجراً ، وأوفر كسباً وحظاً ، وأنهم السابقون إلى جنات الرضوان .

وحين يعلم المسلم - أيّاً كان وضعه - هذه الحقيقة ، فإنه يكون مطمئن القلب ، مرتاح الضمير ، واثق الخطو ، لا ينعطف يمنة ولا يسرة ، يشغل باله بالثواب ، ولا يلتفت إلى هذه الدنيا ألبتة ، وهو يعلم أنها لا تساوى عند الله جناح بعوضة !.

والداعى حين يختار مدعوِّيه على أساس من الوجاهة والملاحة ، أو النسب والحسب ، أو الشأن والمكانة ، أو المنفعة والمصلحة - حتى لو كانت دعوية - أو الاستملاح والاستلطاف . . دون اعْتداد بالمعدن النقى ، والشخصية السوية ، والعقيدة الصحيحة ، والفكر السليم ، والإقدام والشجاعة ، والنفَس الطويل ، والتريُّث والتعقل ، والتفتح والتقبُّل ، والرضا الشامل العميق . .

حين يفعل الداعى ذلك ، ولا يعتدُّ بهذه السمات الأصيلة ، فإنه يكون قد اتبع هواه ، وضيع وقت دعوته دون كبير نفعٍ أو عظيم فائدة .

والداعى لابد أن يكون متجرداً كل التجرد ، فالنفس يستهويها الجلوس إلى المترفين ، وتجنح إلى الحديث معهم ، وتميل إلى معاشرتهم ومخالطتهم ، وتستملح ذلك وتلح عليه ، فتهرع إلى دعوتهم دون أوساط الناس وفقرائهم .

وهذا نوع من أنواع النفاق الدعوىّ لا مبرر له غير التبسُّط والترويح ، مما يصيب الدعوة بالخمول والنعاس وغلبة التثاؤب !

حتى فى مجال الدعوات العامة ترى الشيخ الجليل يوقر الغنى المترف ، ويحتفل به ويبجله ، ويفسح له فى الوقت والمكان ، وقد تراه عابساً حين ينفردُ به الرجلُ من عامة الناس ، قد جاءه مستفسراً راجياً التعلم والتفقه ، فيضيق عندئذ وقته ، وتُختصر آنئذ كلماته ، وتميل إلى الإيجاز المفرط ، وقد كان قبلُ واسع الصدر ، طليق اللسان ، يُعيد ويكرر ، ويشرح دون ملالة أو فتور .

ولا يعنى ذلك إهمال دعوة المترفين ؛ فهم جزء من المجتمع ، له خصوصيته وتأثيره الكبير ، غير أن الخطأ يكمن فى التكالب على دعوتهم ، والتلهف إلى نصحهم ، والإهراع إلى وعظهم ، وإغفال عامة الناس وهم الأكثر والأعم .

لابد أن يكون هناك نوع من العدل والصدق والتجرد ؛ فنبتسم ـ نحن الدعاة ـ للضعيف الخامل نفس ابتسامتنا للقوى المهاب ، ونوقر الفقير المحتاج توقيرنا للغنى المترف ، ونُقبل على الأشعث الأغبر إقبالنا على ذى الوجه النضر واللباس الحسن .

نفعل ذلك دون تميز أو مجاملة أو نفاق ؛ فالدعوة إلى الله تحتاج إلى تجرد عميق ، وإخلاص دفين ، دون محاباة أو مراءاة .

والرسول ـ ﷺ ـ حين اهتم بالزعماء والأشراف مجرد اهتمام ؛ من أجل دعوته ودينه ، ولم يلتفت إلى ذلك الأعمى ، فعبس فى وجهه وأعرض .

حين فعل الرسول الكريم ذلك غضبت السماء وتحركت ، وتنزل قرآنٌ يُتلى إلى يوم الدين .

إنه أمر عظيم حقاً ، ومبدأ أصيل كذلك ، ومعيار ثابت لا يتعدد ولا يتبدل ، ومساواة تنسحب فى أرقى صورها على كل مخلوق خلقه الله وكرَّمه ، وحمله فى البر والبحر .

وهو تجرد سام ، يَنشر ظلَّه على وجه هذه الأرض ، فينعم كل إنسان بإنسانيته كاملة دون هضم أو اعتداء .

إنها قمة سامقة تلك التى اعتلى عرشَها الإسلام ، ما زالت البشرية تحبو نحوها ، وتحاول بلوغها ، قد تطاولت الأعناق إليها ، ورنَت العيون صوبها ، لتشهد هذه المعجزةَ الخالدة ، وهى تُنظم للناس حياتهم ، وتضبط إيقاعها المنشود ، على حداء المساواة المجردة ، والعدل المطلق !

ولكن كثيراً من المسلمين اليوم قد رغبوا فى التفريط ، وكرهوا السمو والارتقاء ، فنزلوا أسفل سافلين ، ثم تاهوا أربعين سنة ؛ بل تزيد ، فلم ينتفعوا بإسلامهم العظيم ، ولم يفلحوا فى أمور كثيرة ، فأصابهم الضعف والوهن والخذلان !





وما آمن معه إلاَّ قليلٌ

وكأنّا نتطلع إلى ذلك الشيخ الجليل ، وهو يحمل على كتفيه قروناً عديدة ، وأزماناً مديدة من الدعوة والتبليغ والنذارة [1] . . يجوب بها النوادى ، ويمشى فى الأسواق . . يعظ جمعاً هنا ، وينصح فرداً هناك . . لا يمل ولا يكل ، ولا يسأم ولا يضجر ، غير أنه صبور يبتغى رضا ربه وإبلاغ رسالته .

كل طلعة شمس ، وهَلّة قمر ، وكل هاجرة وكل أصيل . . تراه بشيراً نذيراً ؛ فالدعوة لحمته وسداه ، ومبدؤه ومنتهاه . . الأمل يحدوه دائماً ، فلعل الأرض أجنَّت [2] بذرةً إلى حصاد ، ولعل القوم إلى ربهم يثوبون ، ولعل الشارد عن طريق الهدى آيب تائب ! .

وبعد طول المدة ، كأنْ قد استيأس ، وظن أنه قد كُذب ، فهو لم يترك صغيراً ولا كبيراً إلا دعاه ، ولم يدع سبيلاً من سبل التبليغ إلا سلكه ؛ فقد أعلن وأسرَّ ، ورغَّبَ ورهَّبَ ، وحذَّر وبشَّر ، ووعد وتوعَّد ، وتقرَّب وتودد . . إلا إنهم لا يستجيبون !

نتطلع إليه الآن ـ رغم مرور القرون والأحقاب ـ جالساً يرقب الجيل الجديد ، يرقب ما فى أرحام الأمهات ، لعل فيها ما يستجيب للإيمان . . ولكن الأمهات لا تلد إلا فاجراً كفَّاراً ، كأنَّ أبويه قد سقياه الكفر جنيناً ، وأرضعاه الفجور طفلاً صغيراً !

لم يظل هذا الرسول الأول على دعوته تلك سنة أو سنتين ، ولا مائة أو مائتين ، بل مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً .

---

(1) الإنـــذار .
(2) حفظت .

حاول أن تتخيل هذه الدعوة الطويلة ، وهذا الإبلاغ المديد . . ولكن لا تتخيل، إنها حقيقة ! حقيقة الصبر الذى لا حدود له ، يمنحه الله لمن يشاء من عباده ، وحقيقة الاحتمال الذى لا تقدر عليه الجبال الرواسى ، ولكن يقدر عليه الرسل الكرام ، وحقيقة الشعور الغامر ، والإحساس الطافر ، حين يمتزج بقلب المؤمن ، فتسرى فيه لذة الطاعة ، وحب التضحية والتفانى ، فلا تجرى عليه ملالة ولا سآمة ، ولا ضجر ولا فتور ، مهما طالت مدة العمل ، ومهما تكرر الإنذار والإبلاغ . . فلا شىء يعادل رضا الرب سبحانه ، ولا شىء يعادل الثواب المنتظر والنعيم الأسنى يوم الدين .

غير أننا نعود إلى السورة التى سميت باسمه ؛ لنرى كيف كانت دعوته ، وكيف كانت طرائفه ووسائله ، فذلك هام ومُلِحّ ، لطول المدة ، وعظم الرسالة ذاتها .

لقد دعا نوح ـ عليه السلام ـ قومه ليلاً ونهاراً ، فلم يُجدى معهم يقظة النهار ، ولا هدوء الليل ، بل زادهم ذلك فراراً ، ولم يقل نفوراً أو صداً وإعراضاً ، بل فراراً، لا يلوون على أحد ، كأن دعوته شىء مخيف ، وشبح رعيب ، فاعتبروها وباء ـ وهى الدواء الناجع ـ يخشون ضرره وعدواه ، فتراهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا ﴾ (1) .

بيد أنه يفتح باب الترغيب لهم ، فيدعوهم ليغفر الله ذنوبهم وخطاياهم ؛ إن هم استجابوا لداعى الإيمان ، إلا أن ردهم كان قبيحاً أىَّ قبح ، وكان بعيداً عن الأدب والذوق ، فقد لغوا عقولهم وأبصارهم ، وارتكسوا فى حمأة لا تَردها البهائم والأنعام ، واستمرأوا المكث فيها ؛ انصياعاً لنزواتهم ، وشروداً عن دعَوة الحق !

(1) نوح : 5 - 6 .

لقد عطّلوا أولاً حاسة السمع ، فوضعوا أصابعهم فى آذانهم ، ثم غطّوا رؤوسهم ووجوههم حتى لا ينظروا إليه أو يسمعوا كلامه :

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ (1) .

فهم لا يرضون دعوته جملة وتفصيلاً ، ولا يؤثر فيهم رَغَب ولا رَهَب ، قد بلغوا من الغلظة كل مبلغ ، وارتشفوا من التمرد كل ارتشاف ، واستساغوا الإعراض ، ألِفوا المعاصى وألِفتْهم ؛ بل دانوا لها كل دين !

إلا أن أول الرسل يُنوع من أسلوب دعوته ، فقد سلك الجهر أولاً ، فلم يُجد معهم شيئاً ، فأراد أن يجرب الأمرين معاً : الإعلان والإسرار ، فلم يزحزح ذلكَ من موقفهم قيد أنملة ، فعاد إلى الترغيب مرة أخرى ؛ فربط بين الاستغفار وما يترتب عليه من أنعم وبركات ، فلم يلتفتوا لفتة واحدة ، ولو من باب المجاملة !

ويبدو أن نوحاً كان يُناسب بين دعوته وبين حالهم ومقامهم ؛ فكان يُسرّ حين يرى الإسرار أجدى وأحرى ، وكان يُعلن حين يرى الإعلان أنسب وأنفع . . ولكن هذا الجهد الجهيد من هذا النبى الكريم لم يلقَ آذاناً صاغية ولا قلوباً واعية ، بل كانوا فى غيهم يعمهون !

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ (2) .

---

(1) نــوح : 7 .
(2) نــوح : 8 - 14 .

إن السورة بجملتها شكوى لطيفة ، يرفعها نوح ـ عليه السلام ـ إلى مقام الذات الإلهية ، ويعرضها في نجاء[1] قريب ، وخطاب ودود ، فهو يبرئ ساحته أمام الحَكَم العدل ، دون أن يكون هناك أي تقصير ، فهو ـ عليه السلام ـ قد قام بما لا يقدر عليه البشر ، إلا أنه يود عرض الأمر برمته أمام خالقه ، كأنه يقدم أوراقه ؛ ليحكم اللهُ فيهم أمره ، بعد أن بَذَل كل بَذْل ، وأعطى فلم يُبق شيئاً ، وسلك معهم كل مسلك ، ومكث فيهم عمراً مديداً ، غير أنهم معاندون أيما عناد ، ومصممون على الكفر دون لين أو هوادة ، ولم تعد هناك فائدة من دعوتهم ونصحهم .

إنها سورة عظيمة حين تَعرض علينا خلاصة دعوة مديدة ، أخذت من عمر البشرية ما يقرب من ألف عام ، تَعرضها بإيجاز بليغ ، ودقة متناهية ، كأنها شريط يُقدم لنا هذه التجربة الحافلة من عمر الدعوات .

تَعرضها علينا من نقطة البُداءة :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [2] .

وتختمها بدعاء نوح على قومه ، وهو دعاء حقيق وصعيب :

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [3] .

ولكن النهاية كانت غفراناً وقربى وصلة رحم ، دون أن يَنْسى الظالمين ، فهم موضوع السورة :

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا ﴾ [4] .

---

(1) مناجاة .
(2) نوح : 1 .
(3) نوح : 6 .
(4) نوح : 28 .

وفي هذا الدعاء الأخير تركيز على الإيمان والذين آمنوا ؛ فهم الطائفة التي افتقدها هذا النبي كثيراً ، وبحث عنها طيلة ألف سنة إلا خمسين عاماً .

وننظر إلى هذه المدة الطويلة فنجد أن الذين آمنوا بنوح قليل ، وقليل جداً ، قيل ثمانين ، وقيل اثنين وسبعين ، وقيل عشرة !

وقد ذكر القرآن الكريم أنهم قليل ؛ حين عرض مشهد السفينة ، وحين جاء أمر الله وفار التنُّور ، وحَمَل نوح في سفينته من كل نوع من المخلوقات اثنين : ذكراً وأنثى ، ومعه الذين آمنوا ، وهم قليل :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ (1) .

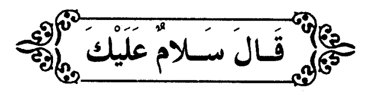
فقد كانت سفينة النجاة ، وكان لابد للأرض أن تتطهر من أولئك الذين ظلموا، ومن أولئك الذين لا خير فيهم ولا رجاء .

ولا يُطهر الأرض سوى الماء ، فكان من الأرض كما كان من السماء ، وحَمل الله نبيه الكريم والذين آمنوا على ذات ألواح ودسر ، وللذين كفروا جزاءً الغرق ، ولغيرهم العظة والعبرة :

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (14) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (2) .

إنه تطهير للأرض كان مُلحاً ، وإنها نجاة مباركة لنوح ـ عليه السلام ـ والذين آمنوا معه ، وإنها عظة وعبرة للداعين إلى الصراط المستقيم ، وإنذار وتحذير للمعرضين عن الحق ، والصادِّين عن سبيل الله .

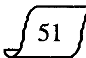
(1) هود : 40 .
(2) القمر : 11 - 15 .



قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ

هذا النبى العظيم ، ذو الطابع الهادئ والسمت الرائق ، وذو المكانة الرفيعة بين الأنبياء جميعاً ، فهو أبوهم ، وهو أصلهم ، من صلبه جاء المرسلون تترى ، رسولاً من بعد رسول ، فأبت المشيئة الإلهية منذ خُلق إبراهيم - عليه السلام - أن يخرج نبى إلى الناس من دون صلبه وعرقه !

إنه خليل الرحمن ، كان أمة قانتاً لله حنيفاً وما كان من المشركين ، وإنه لحليم أوّاه منيب ، وهو نبي البحث والتدقيق ، وصاحب النظرة الثاقبة والتأمل الرزين ، وذو قلب مطمئن وإيمان راسخ متين .

وهو النبى الوحيد الذى تصلى عليه الخلائق فى صلاتها اليوم إلى يوم الدين ، مع خاتم النبيين وإمام المرسلين ، رسولنا -  - فتتذكره دوماً ، وتعيش معه ومع آله الكرام .

ونبدأ معه حيث كان هناك يتقلب بين النجوم ، يبحث عن ربه ، ويطلبه فى كل آية من آيات هذا الكون العظيم ، يتلهف إلى معرفته والتقرب إليه ؛ فالفطرة السليمة لا تقوى على التحمل أن تعيش هكذا دون معرفة بارئها وخالقها ، فتهتدى إليه لا محالة دون أن تضل أو تشقى .

وكلما أبصر الخليل آية خالها ربه ، فيستعجل قائلاً : هذا ربى ، وكأنه يريد أن يرتاح ، وأن يتخلص من القلق الذى يعتريه ، والأرق الذى يلازمه ، فما عرف قلبه إلا الطمأنينة ، وما كان سمته إلا الحق والحقيقة ، تأبى فطرته الحية أن تظل دون اهتداء ، ودون سجود وخضوع لله الواحد .

هنالك حين ستره الليل يرى كوكباً ، فينطق لسانه فرحاً ظاناً أنه وَصَلَ ، ولكنها

الخطوة الأولى . . فلما أفل ارتد إليه البصر وهو حسير ، فلم ييتئس ، ولم يأفل[1] شوقُه ، ولم تنطفئ حرارة البحث والتأمل ، فها هو الآن يرى القمر بازغاً ، فخاله الإله صدقاً ، فما أبدعه وما أبهاه ! ينير الكون كأنه حارسه من الأشرار ، وكالئه من الأعادى والفجار ، بيد أنه أفل هو الآخر ، فأيقن أنه ضال إن لم يهده ربه ، ثم ظنه الشمس ساطعةً ؛ فهى أكبر وأقوى ، ففرح جذلاً ، وطار شوقاً ، فهذا ربه هذا أكبر ، ولكنه يَفْجَأ بأفولها وغيابها ، قد جرى عليها ما يجرى على الخلائق جميعاً ، فالذبول والممات ، والبَلى والفناء ، والأفول والغياب صفات تعترى كل مخلوق ، وتسرى فى عروقنا وأوشاجنا .

آنئذ أيقن الخليل أن ربه هو رب هذه الخلائق جميعاً ، فوجَّه وجهه إليه ، وأسلم نفسه إليه ، مسلماً دون شرك أو ضلال .

قد يكون ذلك أيام طفولته ، وقد يكون على سبيل المناظرة والمجادلة والتعريض ؛ فالقوم كانوا يعبدون الأصنام والكواكب ، فأراد أن يقيم عليهم الحجة ، وأن يتدرج معهم ، ويسايرهم ويجاريهم ، فيصل معهم إلى بطلان آلهتهم عن طريق العقل والمنطق والبرهان .

وإن صح ذلك يكون إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد أقام لهم درساً عمليّاً لإثبات صدق دعوته ، فنزل إلى الأرض التى يقفون عليها ، واعتبر نفسه واحداً منهم ، ينشد المدى ، ويبحث عن الحقيقة ، وفى ذلك أبلغ الأثر فى نفس من تدعوه ، وألين لقلبه ، وأقرب إلى الالتقاء دون نفور أو صدود .

وطريقة « المسايرة[2] » هذه تُؤْتى ثمارها ولو بعد حين ؛ ذلك أن « المباشرة »

---

(1) يَغب ويضعف .

(2) المقصود بالمسايرة هنا مجاراة من تدعوه وصولاً به إلى الحقيقة لا أن تفعل مثله أو تتبعه ، فهى وقتية حتى تشرح قضيتك ودعوتك .

أدعى للمصادمة فى كثير من الأحيان ، وأدنى للنزال والجدال ، فالنفس البشرية تستنكف أن تعاب أو تهان ، ولكنها تعى حين يسلك الداعى والناصح سبيل التلميح والتعريض ، فهى لا محالة تفهم المغزى ، وتقدر على التوصل إلى الحقيقة دون إجبار أو وصاية .

ومحنة الدعاة الآن ـ بعد أن أصيبوا بكثير من العلو والغلو ـ أنهم يجنحون إلى مواطن التصريح والمباشرة أكثر من مواقف التلميح والتعريض ، وإلى إصدار الأحكام دون هوادة ، وإلقاء التهم دون تحقيق ، فأحس الناس من بعضهم علواً ، ولمسوا فيهم الغلو والاستكبار .

والداعى لا تفلح دعوتُه أبداً إلا إذا اتصف بالتواضع والتودد ، واتسم باللين والتقرب ، فهو يحاكى نفوساً قد جُبلت على التعزُّز ، وقلوباً ترفض النقد والتجريح .

وقبل أن ننتقل إلى مشهد آخر من مشاهد الدعوة عند نبى الله إبراهيم نتأمل هذه الآيات التى كنا بصددها :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (1) .

ولكننا نعود إليه الآن وهو فتى ، حيث انفرد بأصنام قومه ، فغاظه ما يعبدون ، وأرقه ما يفعلون ، فانهال عليها ضرباً باليمين ، فجعلها جذاذاً إلا كبيراً لهم ، وقد فعلها يوم عيد ، فأبى أن يذهب معهم ، ونظر نظرة فى النجوم ، فبينه وبينها رحم وقربى ، وقال لقومه : إنى سقيم ، فهل كان سقيماً ؟ .

(1) الأنعام : 76 - 79 .

لا . لم يكن كذلك ؛ فقد كان قوياً فى جسده ، سليماً فى بدنه ، فما إن ذهب قومه إلى عيدهم حتى انتهزها فرصة وكسَّر أصنامهم ، إذاً هو سليم معافى ، ولكن ضلال قومه قد أثقل قلبه بالهموم والغموم ، وأتعبه أيما تعب ، فأرَّق راحته وسكينته ، وكدر عليه نقاءه وصفاءه ، إنه سقيم فعلاً ؛ فهى حقيقة وليس هروباً ، وهى صدق وليس زلة ارتكبها ، وهى واقع يعيش معه ويتفاعل ، وهى في الأخير عَرَض ينتاب قلب المؤمن فيُمرضه ويُثقل عليه جسمه ، حين يبصر كفراً صراحاً ، وفسقاً بواحاً .

فمثل قلب إبراهيم ـ عليه السلام ـ بطهارته وحيويته ، ويقينه وثباته ، وشفافيته وإيمانه . . لا يقوى على تحمل هذا الانحراف العقيم ، فهو لن يَبْرأ ولن يستريح إلا إذا حطم هذه « الأكذوبة » التى صنعوها بأيديهم ، ثم يسجدون لها ويعبدون .

جعلها جذاذاً وهو الحليم الأواه المنيب ، وهى صفات لم يخرج عنها قط ، قد تمثلها فى كل حياته ، وكانت خطاً عريضاً فى دعوته ورسالته . . إلا فى هذا الموقف ؛ فهو وقتها كان فتى : ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ ، وكان يريد درساً عمليّاً لإبطال عبادتهم ، ومدى زيفها وتفاهتها ، فأى عاقل حين يرى الإله الذى يعبده لم يقَو حتى للدفاع عن نفسه ، وأن فتى وحده قد استطاع أن يتغلب عليه دون أدنى مقاومة أو استغاثة ، فإنه لا محالة سيفيق ويعود إلى الإله الحق .

فهذه الخطوة التى شذ فيها إبراهيم ـ عليه السلام ـ عن طبعه وسمته كما يظن البعض ، هى من صميم طبعه الهادئ وسمته الرائق ، فليس معنى أن يكون الرجل حليماً ألا يغضب حين تُنتهك حرمات الله ، فمن الحلم وقتها الغضب ، فكان نبينا عليه الصلاة والسلام يغضب حين يرى حرمات الله تُنتهك ، وكذا كل مؤمن غيور على دينه ودعوته .

وقد حقق إبراهيم الخليل هدفه من هذه الخطوة الحاسمة تحقيقاً رائعاً ؛ فالقوم الغلاظ الشداد قد رجعوا إلى أنفسهم ، وبدأوا التفكير ، وبدأوا الإفاقة ، وإن كانت لحظية وقتية ، إلا أنها ضرورية فى حياة الدعوات ، فهى بمثابة الحقنة الأولى التى تهز الجسد العليل ، وتجعله ينتفض ولو قليلاً . . فالقوم قد طال نومهم ، وغاب وعيهم ، فلابد من صدمة قوية توقظهم ، ولابد من خطوة حاسمة ، فكانت ، وكسَّر أصنامهم ، ورجعوا إلى أنفسهم ، واستطاع أن يلتقط منهم هذا الاعتراف الهام : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ ﴾ فكانت لحظة الإبلاغ والإعلام : ﴿ .. أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ ﴾، واستمر فى حزمه وحسمه ، كأن القوم جسد هامد ، قد بدأ ينتفض وما زال فى يده ، فيهزه بقوة أخرى وبعنف لعله يفيق وينهض : ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ ، فالداعى لابد له من لحظات حزم ، ولابد له من مواقف تصميم وإرادة ، دون أن تخرجه عن هدفه النبيل ، ووسيلته الصحيحة .

بيد أن الضلال لدى قومه يَغلب ، والحمية تأخذ طريقها المشؤوم : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾

تأمل هذا الموقف فى سورة الأنبياء :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ

عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ (1) .

ونتقل الآن إلى موقف آخر من مواقف الدعوة عند إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، وفيه النمرود ، فكانت حجته بالغة ، ودليله لا ريب فيه ، فبهت الذى كفر ، وانقلب على عقبيه خائباً خاسراً ، ذلك أن نبى الله إبراهيم كان حكيماً كل الحكمة حين ترك النقطة التى جادله فيها النمرود ، حيث بدا فيها بعض الضبابية ، وبعض التشابه والتداخل عند غير المؤمنين ؛ فهو يعتقد أنه يحيى ويميت ، فأنْ يأمر بقتل أحد يكون قد أماته ، وأن يعفو يكون قد أحيا ، هكذا تصور أن الأمر بهذه البساطة وتلك السذاجة ، وتخيل أنه يمتلك الكثير من دلائل التفرد والقدرة ، ولكن نبى الله إبراهيم انتقل فى حكمة وبراعة إلى نقطة لا لبس فيها ولا تداخل ، فعرض عليه أن يأتى بالشمس من المغرب دون المشرق ، فهو لا ينسى علاقته الحميمة بالنجوم والكواكب ، فكان عجز النمرود شديداً ، وكان الإفحام قوياً أى قوة ، ولو وقف إبراهيم عند نقطة الإحياء والإماتة دون الانتقال إلى نقطة أشد سطوعاً وأقوى وضوحاً ، لما تمكن من إبهات الذى كفر ، وما استطاع كسب هذا الموقف العصيب ، فالمساحة أمام الداعى واسعة ، وأفق الأدلة لا حد له ولا أفول ، وعليه أن ينتقل من برهان إلى برهان ، ومن حجة لأخرى ، دون أن يتجمد أو يتحجر ، ودون أن يتقوقع أو يتأخر ، فهو الوحيد الذى يملك من الأدلة والبراهين ما لا يملكه داع آخر ؛ فالكون يرفده بذخيرة واسعة ، وكذا الحياة والنفس والوجود ، يعاونه فى ذلك فطرة الإنسان وعقله الذى وهبه الله .

(1) الأنبياء : 51 - 70 .

نتلو هذه الآية التى حكت ما دار بين إبراهيم والذى كفر :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (1) .

ولكنه كان رائعاً فى دعوته لأبيه ، حيث سرت كلماته على نهر عذب سلس ، وتمازجت لتكون خيوطاً حريرية من التودد والتلطف ، فارتسمت فى أفقها كل علائم الرضا ، وشارات البر والإحسان ، وكان التدرج عبقرياً ، والتتابع فياضاً رائعاً ؛ كل جملة توصل إلى أختها ، فبيَّن له عجز الأصنام التى يعبدها ، وأنه قد جاءه من العلم ما لم يأته ، فأنْ يتبعه خير من أن يتبع الشيطان ، ثم إنه يخاف أن يسمه العذاب ، فلا يفلح أبداً ، ولا ينجو كذلك .

وتأمل تكراره للاسم المبارك « الرحمن » حتى حين ذكر العذاب ؛ ليضفى على هذه الدعوة الخاصة كثيراً من الود والرحمة والتقرب .

ولما عبس والده وبسر ، وتوعد وتهدد . . ردَّ عليه بالسلام ، فالسلام له خصوصيته هنا ، وله حقيقته ووجوبه طالما أن المدعو أب له صلة وقربى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ (2) .

والأبوان هما الوحيدان اللذان يستحقان البر والود ، والتلطف والترقق مهما كان كفرهما وجحودهما ، إلا أن كثيراً من شباب الإسلام اليوم ينسى هذه الحقيقة

(1) البقـرة : 258.
(2) مـريـم : 41 - 47.

الكبرى ، ولا يزال يمارس على أبويه نوعاً من التعالى والازدهاء ، ولوناً من العنت والجحود ، وهما بعدُ مسلمان لا كافران !

وقبل أن نترك أبانا إبراهيم لابد أن نعرج إلى سؤاله الذى حير بعض الباحثين :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (1) .

لقد أراد هذا النبى الكريم عين اليقين ، أراد المعاينة والمشاهدة ، ليس شكاً أو ريباً ، وليس تحقيقاً كذلك أو إثباتاً ، وليس برهاناً على الإيمان أو دليلاً ، فهو مؤمن الإيمان كله ، وموقن اليقين نفسه ، وثابت أيما ثبات ، بيد أنه لم يرد الوقوف عند حد إيمان اليقين ، بل أراد إيمان المشاهدة ، فيصل إلى درجة من القرب والاتصال والشفافية لا تشوبها مثقال ذرة من الضعف والركون .

لقد كان عظيماً فى كل شىء ، وأراد أن يكون إيمانه عظيماً وفريداً كذلك ، فما يضيره أن يسأل ربه هذا السؤال ؛ سؤال كيفية ، لا سؤال إثبات وبرهان ، فيبلغ درجة من التميز لا يسبقه فيها أحد ، كأنْ قد أراد أن يشهد القيامة قبل وقوعها ، والبعث قبل حدوثه ، والإحياء قبل أن يُنفخ النفخة الأخرى ! .

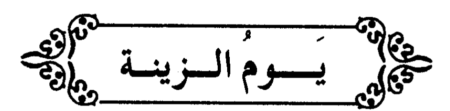
وكان من نتائج هذا الاطمئنان المتميز أن وصل حداً من الاتصال بربه لا يشاركه فيه أحد ، وبلغ بالقرب كل مبلغ ، وكانت دنياه وآخرته ، وكل مطالب روحه وجسده من الله رب العالمين :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ (2) .

---

(1) البقـرة : 260.

(2) الشعراء : 78 - 85.



موسى عليه السلام . . تلك النبوة الثائرة ، وتلك الرسالة التى تتسم بالحماس الفائر ، والانفعال الحميم .

كان البدء صعباً وقاسياً . . هنالك فى التابوت ، يصارع أمواج اليم ، فيلقيه بالساحل ؛ ليأخذه عدوه الأول والأخير :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ (1) .

وحين أراد الرب العظيم أن يناجيه كانت النار بين يدى اللقاء الأول :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (2)

ولما دخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، ليجد عدواً وصديقاً يتنازعان ، فيتدخل ؛ ليقضى على عدوه بضربة واحدة :

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ (3) .

حتى المعجزات التى أتى بها كانت ثورية انقلابية ؛ فالعصا تتحول ثعباناً مبيناً ، ويده تخرج من جيبه بيضاء يغلب نورها نور الشمس ، ويملأ ضوؤها الأفق . .

---

(1) طه : 38 - 39.
(2) القصص : 29 - 30.
(3) القصص : 15.

هكذا فى ومضة واحدة ، وهكذا فى لحظة تثير الإبهار ، وتدعو إلى التوجس ، وتبث الخوف فى النفوس ؛ حتى فى نفس موسى القوى الأمين .

وتبلغ الثورة النفسية ذروتها حين يلقى ألواح التوراة ، ويأخذ برأس أخيه يجره إليه :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ (1) .

ولما فعل « السامرى » ما فعل كان الرد قوياً بكل معانى القوة ، وحازماً أيما حزم :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ (2) .

وحين اختلف بنو إسرائيل فى تحديد القاتل كان الأمر بذبح بقرة ، ولم يكن الأمر شيئاً آخر :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (3) .

وينسحب مدلول القوة ومغزى الانفعال على موقف السحرة ، حتى وهم يسجدون ؛ فقد كان سجوداً فورياً . . وقوياً . . وثائراً كذلك ، عبر عنه الفعل « أُلْقى » فكان وصفاً لازماً لسجودهم وإذعانهم :

(1) الأعراف : 150 .
(2) طـــه : 95 - 97 .
(3) البقــرة : 67 .

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَرُونَ ﴾ (1) .

وكان التيه نهايتهم المشؤومة :

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (2) .

وفى المقابل كان القوم قمة فى الاعوجاج ، وغاية فى الانحراف ، وقدوة فى التقلب والتحول ، ومعلماً لا مثيل له فى الالتواء والتملق . . وكان العدو الأول هو فرعون ، طاغية العصور جميعاً ، وفريد زمانه فى الكفر والضلال ، ووحيد العالمين فى التأليه والعلو والاستكبار !

لقد تكالبت على بنى إسرائيل أدواء قد تأصلت ، وتآزرت عليهم علل قد تعمقت وترسخت ، وتعاورتهم انحرافات وانحرافات ، فاستمرؤوا المخالفة والشقاق ، ومردوا على الكفر والنفاق ، وناموا نوماً عميقاً ، وتاهوا كل طريق ، وألفوا التشرد وألفهم ، والتصقوا بالضياع والتصق بهم ، واستساغوا ذلك وارتضوه لأنفسهم . . فلا يستجيبوا لأول داعٍ ، ولا يلتفتوا لأول مُنْقذ ، ولا يفيقوا لأول رجة ، ولا يفلح معهم حلم الحالمين ، ولا أناة المتريثين ؛ بل لَادواء لهم ناجع ، ولا منقذ لهم فالح إلا ذلك القوى الحازم ، فكان موسى رسولاً إلى بنى إسرائيل .

لا يصلح معهم إبراهيم الأواه المنيب ، ولا نوح الصبور الشكور ، ولا عيسى الزاهد العابد ، ولا شعيب البليغ الحكيم . . لا يصلح معهم سوى موسى . . ذلك القوى الأمين ، والثائر الرشيد . . فالقوم فى غيهم ساهون ، وفى غفلتهم قانعون

(1) الشعراء : 46 - 48.
(2) المائدة : 26.

راضون . . يحتاجون إلى من يهزهم هزاً ، ويوقظهم إيقاظاً ، ويرجهم رجاً . . فى قوة لا تضعف ، وعزيمة لا تلين ، وفى صيحة مدوية ، تنبعث من رجلٍ وكز عدوه فقضى عليه !

الله أعلم حيث يجعل رسالته ، وحكيم حين يختار رسله ، وخبير بالنفوس وبما خلق :

﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (1) .

ونبدأ دعوة موسى المديدة من سورة الشعراء . . هناك اجتمع الخوف لدى موسى ثلاث مرات :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ (2) .

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ (3) .

﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (4) .

والخوف الذى يعبر عنه موسى هنا صادق الدلالة واضح اللفظ ؛ فهو يخاف أن يكذبوه ابتداء ، وقد قتل الذى من عدوه ، فتوجه إلى مدين خوفاً من ملاحقة فرعون وملأه ، وهو الآن يخاف أن يقتلوه ، وقبل هذا وذاك قد ولى مدبراً حين رأى العصا حية ولم يعقب ، فدل ذلك على شدة الهلع وكبير الخوف .

والسؤال الآن : لماذا كل هذا الخوف لدى موسى ، وهو القوى المهاب ، الواثق من ربه كل ثقة ، المالئ يديه من عونه وحمايته ، المتصل به كل اتصال ، فهو الكليم القريب ؟!

(1) الملك : 14 .
(2) الشعراء : 12 .
(3) الشعراء : 14 .
(4) الشعراء : 21 .

والخوف صفة حائدة لا يعتريها مدح أو ذم فى ذاتها ، ولا يجرى عليها نقد أو معابة ، ولا حمد أو طلاوة ، بل تكون فى موقف محمدة ، وفى آخر مذمة ، وتظهر على وجه رجل فلا يلام ، وعلى وجه آخر فلا يصان . . وتُقبل فى وقتٍ دون وقت ، وفى حالةٍ دون أخرى ، وفى جمعٍ دون جمع .

ومهما يكن من فلسفة فإن الرجل الضعيف ، غير الواثق من قوته وشجاعته ، تراه يبدى بطولة فارغة ، قد تعبر عنها مظاهر خاوية ، وألفاظ مطاطة ، ونفخة لا وزن لها ولا معيار ، ويكون القصد من وراء هذه الهالة تغطية خوف متأصل ، وهلعٍ متمكن . . حتى إذا جَدَّت الخيلُ جدَّها ، وحمى الوطيس ، وعلاَ الغبارُ الأفق . . ألفيتَهُ طفلاً كبيراً ، أو رجلاً صغيراً ، وغالباً ما ينهار أيما انهيار ، حين تتكشف القشرة عن خواء مرير ، وفزعٍ لا تحمد عقباه !

صحيح أن هناك من الناس من يعرف ضعفه ، فيتحرك على أساسه دون انتفاخ ، ولكن الكبرياء الفارغة أحياناً تورد الردى ، وتحمل على المهالك .

ليس عيباً أن يخاف الرجل القوى من ثعبان رآه فجأة أمامه ، أو أنه يحسن الانفلات من قوم قد اجتمعوا على قتله لا محالة ، فيسلك مسالك النجاة دون تقصيرٍ فى حقٍ قد شُرع أو نصرةِ قومٍ مؤمنين .

والداعى لابد وأن يكون قوياً فى نفسه ، شجاعاً فى مواقفه ، لا يخشى أحداً إلا الله ، ولا يخاف لومة لائم . . وهذا كله صحيح لا ريب فيه ؛ غير أن افتعال مواطن القوة ، والتعمد فى إظهار مواقف الشجاعة والإقدام ، وإخلاط كبرياء النفس بأهداف فى غير ما إخلاص ولا تجرد ، وتعجل النتائج بوسائل هشة ضعيفة لا تساوى مثقال ذرة فى دنيا الغايات . . كل ذلك يصب فى بوتقة التهور لا التريث ، وفى بحر الأمواج المتلاطمة لا شاطئ الأمن والسلامة ، وفى مستنقع التطرف والترهيب لا واحة الاعتدال والترغيب .

والداعى يزن نفسه بميزان شديد الدقة والحساسية ، فيعرف قدرته وقوته ، وسلبياته وإيجابياته ، ويتلمس الأدواء والأسقام ، والمزايا والإمكانات ، ويبدأ من حيث واقعه ، لا من حيث تصورات نفسه الهالكة . . هنا تكون الخطوة الصحيحة فى الطريق المرسوم ، ويكون التحرك سليماً لا دروب فيه ولا زوايا .

بيد أن موسى ـ عليه السلام ـ كان قوياً بكل معانى القوة ، واثقاً من ذلك كل ثقة ، لا يحتاج ذلك إلى دليل أو برهان ، فقد اضطلع بدعوة أعتى العتاة وأطغى الطغاة ؛ فرعون الغاشم الباطش العنيد .

وحين يثق المرء فى قوته ويطمئن إليها ، تراه واضحاً حين يواجه موقفاً صعبياً ، وصريحاً حين يكون الخوف قائماً وواقعياً ، فهو ليس فى حاجة إلى إخفاء ضعف أو إظهار قوة . . فالرجل القوى يصارحك فى المواقف التى لا يهابها ، والأخرى التى لا يقدر عليها ؛ لأسباب تنبعث من ثقة حقيقية لا خيال فيها ولا شطط .

وهذه هى القوة فى أعظم معانيها ، وأجلّ مقاصدها ، وأعلى مراتبها . . وهى القوة النافعة لا الضارة ، والواثقة لا المهتزة ، والمطمئنة لا المتهورة . . وهذه هى القوة التى يريدها الإسلام .

وقد تمثلت هذه القوة فى موسى خير مثال ، فيعرض بين يدى ربه الخوف الذى يراه واقعاً أمامه ، وهو خوف لا ينكره عاقل ولا يغفله حكيم ، كأنْ قد أراد من ربه القادر مدداً غالباً وعوناً بالغاً ، حتى يقوى على مواجهة هذه الجحافل الكافرة ، وهذه الجبلات الجاحدة . . وكأنْ قد تَمَثَّل لحظة الضعف التى تنتاب المقربين حين تخاطبهم القوة الكبرى ، وحين يقفون أمام رب العالمين ، فتضعف القوة البشرية وقتها ، وتُفرِّغ شحناتها التى قد امتزجت بالطين والتراب ، لتَمْتلئ من جديد ؛ من هذه القوة الخالصة التى لا تقهرها قوة ، حتى لو كانت فرعون وجنوده !

وما كان أعظم موسى . . وهو يعرض بين يدى ربه الأسباب التى تحول دون نجاح دعوته ، فقد كان عظيماً فى الموقف ، حكيماً كل الحكمة ، فهو ذاهب إلى قوم قد قَتَل منهم نفساً ، وتكذيب دعوته وارد قبل تصديقها ، كما أنه يخشى ضيقَ صدره وعقدة لسانه ؛ لذا كان فى حاجة إلي من يعينه ويشد من أزره ، فكان هارون نبياً :

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ (1) .

والداعى يجب أن يتسم بالصراحة حين يقوم بواجب الدعوة ؛ فلا يخوض مجالاً لا يقدر على خوضه ، ولا يتصدى لموقف دون أن يستتمَّ عُدَّته ويستكمل أُهْبَتَه ، فليس الخروج ضربة لازب ، وليست الدعوة مهنة من لا مهنة له ، يضطلع بها كل من هب ودب ؛ بل تحتاج إلى دراسة وتحليل ، وإلى إعداد وتحضير ، وإلى تجرد وإخلاص ، وإلى قدرة لا يشوبها نقص ، وثقة لا يكدرها شك ، وصراحة لا يعكرها لف أو مواراة .

فالدعوة اليوم فى حاجة ماسة إلى من يأخذ بيدها من طور الفوضى والتخبيط إلى طور الدراسة والتخطيط ، ومن طور الهواية والتشتت إلى طور الاحتراف والتثبت ، ومن مرحلة الركون والتجمد إلى مرحلة التنوير والتطور .

كان فى استطاعة موسى ـ عليه السلام ـ حين يأمره ربه أن يدعوا فرعون أن يقول «نعم» دون تعقيب ، ولكنه أراد لدعوته النجاح ، فقدم بين يدى ربه كل الملابسات ، واقترح أن يكون معه « مساعد » ، فاستجاب له الحكيم الخبير .

(1) الشعراء : 10 - 15 .

وهو حين يتكل على أن الله هو الذى أرسله إلى فرعون ، وأنه سيكون معه كل آن ، وأن التوفيق سيكون حليفه وأنيسه ، وأن الله قادر على تذليل الصعاب ، وهو حين أرسله قد علم عقدة لسانه وضيق صدره والذنب الذى اقترفته يداه . . كان من المنطق أن يتكل على كل ذلك دون أن يوضح ، ودون أن يراجع ربه ، ولكنها القدوة أرادها الله على لسان نبيه موسى ؛ ليهتدى بها الناس فى كل عصر وآن ، ولكنها الوضاحة التى تطيب بها النفس ، ولكنه الحرص الشديد على نجاح العمل ، وهو فى الأخير درس بالغ للدعاة أن يتثبتوا ، وأن يُتقنوا ، وأن ينهضوا دون فوضى أو اتكال .

وفى عفوية خالصة ـ كما كانت حياته عليه السلام ـ يطلب من الله الرحيم أن يُرسل إلى هارون ، ويلح فى ذلك ، معبراً عن عمق التجرد ونكران الذات ؛ فشرف النبوة يتطلع إليه كل إنسان منفرداً دون مشاركة ، ولكنما هو موسى النبى الخالص !

فالمهمة التى هو بصددها تستدعى وجود مساعد ، وقد لا تنجح بدونه ، فيطلب ذلك فى رجاء عاجل ، تعبر عنه الفاء فى صدر هذه الجملة ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾ .

وكان للدعوة هدفان : إعلام فرعون بالتوحيد والعبودية لله وحده دون غيره ، وأن يُرْسِل بنى إسرائيل ؛ أى يُطْلق سراحهم ولا يستعبدهم أو يستذلهم :

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[1] .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾[2] .

وهنا نقف عند قوله : ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، فبنو إسرائيل كانوا يمثلون الطائفة المضطهدة فى الدولة الفرعونية الظالمة ، وقد استغلهم فرعون أسوأ استغلال ، وأعمل فيهم يد الإبادة والتعذيب ؛ يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، فكان يمارس عليهم نوعاً من الاضطهاد بغيضاً ، وشكلاً من الاستعباد ذليلاً ، ولوناً

(1) الشعراء : 16- 17.
(2) الشعراء : 23 - 24.

من الاستغلال لم يعرفه التاريخ قط :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ (1) .

وأراد الله سبحانه أن يرفع الظلم عن هذه الطائفة المعذبة فى الأرض ، وأن يمنحها استقلالها ، وإنسانيتها كذلك ، ولم يكن ذلك هدفاً عابراً ، بل كان أصيلاً قد أعلنه موسى منذ البداية ، بل أقرنه دائماً بدعوته إلى التوحيد ، وكان يُسمعه فرعونَ كل آن ؛ ليَرُدَّ لهذه الطائفة المضطهدة أبسطَ حقوقها الإنسانية المغتصبة . . هذه الحقوق التى تتشدق بها الحضارة الغربية اليوم ، وتدعو أمم الأرض إليها ، على اعتبار أن هذه الحقوق جزء من حضارتها الوليدة ، وقد مكرت فى ذلك مكراً كباراً ، وكذبت سراً وجهاراً ؛ فهى تنافق حين تطبق هذه الحقوق ، وتكذب حين تدعى أنها صاحبة وجودها وإبداعها .

فهاهو الدين الإسلامى القديم ، وعلى لسان نبيه موسى يدعو فرعون إلى إطلاق سراح بنى إسرائيل ، وأن يَدَعَهم وشأنهم ، وأن يُحررهم من قيوده وسجونه ، وألا يستذلهم ، وألا يعذبهم ، فهم بشر ، لهم إنسانيتهم المعتبرة ، فلا يجب استغلالهم هذا الاستغلال البغيض ، بل يجب منحهم الحياة اللائقة بكل إنسان .

وموسى يعلم خطورة الإصرار على هذا المطلب ، وهو إطلاق سراح بنى إسرائيل ؛ لأنه بذلك يستثير عداوة فرعون ، فى وقت هو فى أمسِّ الحاجة إلى مهادنته ، حتى تصل إليه دعوته ، غير أن عبادة الله الواحد ثم احترام إنسانية الإنسان ، ومنحه حقوقه الأساسية ، وتمتعه بحياته التى وهبها الله له ، وإطلاق سراحه ، وعدم الاعتداء على حريته ، ورفع الظلم عنه . . كان الأساس الذى انطلق منه موسى فى دعوته لفرعون الطاغية .

(1) القصص : 4 - 6.

والدعاة فى كل زمان ومكان معنيون برفع الظلم عن الناس ، وإبانة شروره وآثامه ، وحثهم على إزالته ومحوه ، ونزع الغشاوة عن أبصارهم ، والقيام بدور التوعية الخالصة المتجردة من الأهداف الشخصية أو المكاسب الذاتية ، واتباع الحكمة فى ذلك دون الولوج فى فتنة لا يقرها شرع أو دين .

وهناك من الدعاة من يتجنب الخوض فى هذا الجانب ، طلباً للسلامة ، أو تجنباً لمخاطر لا يود الانزلاق إليها . . ومنهم من يشتط فى ذلك ، ويخوض معركة لا هوادة فيها بلا تبصر أو إلمام ، فيهوى فى مستنقع آسن لا خروج منه ولا نجاة ؛ بل تتراءى ـ حينئذ ـ الفتنة تلو الأخرى ، وتُمسى كقطع الليل المظلم .

يجب أن يكون الداعية وسطاً ، فيحمل شعلة التصحيح فى يده ، دون أن يَحرق أحداً ، بل يُنير بها الطريق ، ويمضى قدماً وهو على بصيرة من أمره ، مُنْتَضياً حجته البالغة ، مُمْتَشقاً عقله الواعى ، يدور مع الحق حيث دار ، لا تصفر يده مَن الحقيقة ، يطرحها عَلى الناس بلا أجر أو منفعة ، ولا يهدأ حتى تستبين سبيلُ المجرمين ، وحتى يرتفع الظلم من دنيا الناس ، ولكن بالحكمة البالغة ، والموعظة الحسنة .

وحين يواجه فرعونُ موسى ، ويذكِّره بما أنعم عليه من تربية وعناية ، وبفعلته التى قتل فيها قبطياً من رعيته . . لم ينكر موسى ـ عليه السلام ـ ، ولم يبرر ، ولم يكثر من الأعذار ، بل كانت « العفوية » هى سمته الدائمة ، فلم يكابر ، ولم يتعالَ، بل كان متواضعاً كل التواضع :

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (1) .

(1) الشعراء: 18 - 22.

وهو لا يقر بفعلته التى يعيره بها فرعون وحسب ، بل يقر أنه كان وقتها من الضالين

وهذه قمة سامقة تتطاول إليها أعناق الصادقين ، وتتطلع إليها أبصار الذين لايعانون من انتفاخ كاذب أو كبرياء فارغة .

والداعى لا ينبغى أن يصور نفسه على أنه ملك كريم ، بل هو بشر يعتريه ما يعترى الناس من أخطاء وزلات ، ويصيبه الضعف أحياناً كما يصيب البشر جميعاً ، وأن يقر بذلك ليس عيباً فى شخصه ولا فى قدوته التى يطرحها أمام الناس ، بل تزيد من محبة الناس له ، والتفافهم حوله ، فالناس لا ترغب فى المتعالين ، بل تجنح إلى ذلك الذى يرون فيه ضعفهم وقوتهم ، ونهوضهم وعثرتهم ، وتواضعهم دون استعلاء أو استكبار .

وقد كانت سورة « طـه » ثرية بمواطن التدبر ومواقف العظة فى قصة موسى ـ عليه السلام ـ .

ونبدأ معها حيث رأى ناراً ، فكان هذا الحوار الذى يَأسر القلوب ، ويأخذ العقول ، ويملك على الروح كل تجلياتها ، وعلى النفس كل أقطارها :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝٩ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ۝١١ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۝١٣ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۝١٤ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ (1) .

حوار خالد كل الخلود ، بين الرب الخالق وعبده موسى ، فى أول لقاء مباشر ومديد . . كانت الكلمات فيه مؤثرة عميقة ، وكان الرضا يرفرف بجناحيه على المكان ، وكانت لحظة وقف عندها الكون بأسره ؛ ليتملى هذا المشهد الأخّاذ ،

(1) طـه : 9 - 16 .

وليستمع إلى الخالق العظيم وهو يُعرِّف عبدَه موسى بنفسه ، وبأنه واحد ، وبأن يعبده دون غيره ، وأنه اختاره رسولاً نبياً .

حوار امتد ليشمل العصا التى يحملها ، فكان رد موسى رد الذى اشتاق وتلذذ، وتقرب وتودد ، وراح يعدد فوائد عصاه ، كأنه مع أنيس لن يفارق مجالسته :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ (1) .

ويمتد اللقاء أكثر وأكثر ، ويزداد القرب لحظة بعد لحظة ، وتُجرى التجربة الأولى قبل أن يلقى فرعون :

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ (2) .

وحين يعرف أنه ذاهب إلى فرعون يدعون بهذا النِّجاء الحبيب :

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ (3) .

فالداعى أيّاً كان زهده وورعه فى مسيس الحاجة إلى مدد ربه ، وإلى مثل هذا الدعاء الخالص الذى ينساب من أعماق القلوب .

ويطيب اللقاء كلما امتد ، ويتذوق موسى حلاوته كلما طال ، وينهل من الإمتاع والمؤانسة ما شاء له أن ينهل ، وتتجلى العطاءات والمنن ما شاء لها أن

(1) طـه : 17 - 18.
(2) طـه : 19 - 24.
(3) طـه : 25 - 35.

تتجلى، ويعدد الخالق على عبده نعمه التى لا تحصى ، ويمنحه وداً لا يدانيه ود ، واصطفاء لا يجاريه اصطفاء ، وقرباً دونه كل قرب ، فى كلمات تعجز الأقلام عن وصفها أو ترجمتها ، ولكنها تكتفى بكتابتها كما هى :

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ (1) .

﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ (2) .

ويُعلمه الخالق كيف يدعو فرعون ؟ وأنه ينبغى مخاطبته باللين لعله يتذكر أو يخشى وأنه معهما يسمع ويرى :

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (3) .

إنها وقفة عظيمة ، يتدبرها الدعاة على الدوام . . فهذا فرعون الطاغية ، الذى قال : أنا ربكم الأعلى ، تُرجى هدايته ، ويُتوقع إنابته وخشيته ، بلا يأس أو قنوط .

ذلك أن الهداية لا تكبر على الله الهادى ، فهو وحده يهدى من يشاء ، وما علينا إلا أن نقدم الأسباب بين يدى هذه الهداية ؛ ليرى اللهُ فيها كلمته ، ويحكم فيها حكمه الذى لا يرد ولا يتغير .

إنه القول اللين ، والكلام الطيب ، والجدال الحسن . . يُقَدَّم إلى فرعون الغاشم ، ليعطى درساً بالغاً لأولئك الذين يمارسون فى دعوتهم جوانب الغلظة ، ومواقف الجفاء، ومواطن النفور مع من أقل عصياناً من فرعون ، بل مع المسلمين المؤمنين !

وما الداعى إلا كلمة طيبة ، أو ابتسامة حانية ، أو سماحة ندية ، أو ود لا ينقطع ، أو قرب لا يعرف البعد أبداً .

(1) طـه : 39.
(2) طـه : 41.
(3) طـه : 42 - 46.

كم من الدعاة من ترى الغلظة فى معاملته ، والتجريح فى كلامه ، والجفاء فى أسلوبه ، والحكم الجائر الجاهز ، والموقف الجامد المتصلب ، مع علمه بخطأ تصرفه ، وسوء فعله ، ولكنه الهوى أحياناً ، والإعجاب بالنفس أحايين أخرى .

لابد من التعقل لدى الدعاة ، ولابد من اللين والرحمة ، ولابد من التواضع للناس بلا شروط أو قيود .

لا يعنى ذلك أن الصورة قاتمة ، ولكن النقاط السوداء فيها تكاد تأخذ بصرك ، وتكاد تغشى على أجزاء الصورة جميعاً ، ولكننا نستطيع أن نَفْرُك أعيننا قليلاً ، وعندها نرى نقاطاً تتلألأ نوراً وهدى .

ومهما كانت العقبات صعيبة ، ومهما كانت التهديدات رعيبة ، ومهما كانت المخاطر والمزالق . . فإنك أيها الداعى لابد وأن توقن أن الله معك ، وأنه يسمع ويرى : ﴿ **قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ** ﴾ .

وهذه نقطة ارتكازية هامة ، لا ينبغى إغفالها لحظة واحدة ، وإلا سلمنا أنفسنا إلى الضعف والهوان ، والذلة والانتكاس .

ويتجنب موسى المباشرة مع فرعون ، ويسلك طريق التعميم دون التحديد ، والتلميح دون التصريح . . وهذا أدعى لاستمالة القلوب ، وإصغاء الأسماع والعقول ، فالسلام ـ وهى كلمة ذات معنى حين تُوجه إلى فرعون ـ على من اتبع الهدى ، والعذاب على من كذب وتولى :

﴿ **فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ** ﴾ (1) .

---

(1) طـه : 47 - 48.

هكذا دون توجيه اتهام إلى فرعون ، ودون تجريح أوتعنيف ، ودون إشارة واحدة بأنه المعنيّ ؛ لأن الدعوة حين تنهض تنفض يدها من تجريم أحد ، أو محاكمته، أو تيئيسه ، أو حتى ملامته وعتابه . . وتمدها طليقة إلى الجميع بلا استثناء ، وتفتح قلبها لكل القلوب حتى قلب فرعون ،لعله يتذكر أو يخشى . . فللدعوة مجال ، وللقضاء مجال لا يلتقيان أبداً ، ولا يعرف أحدهما الآخر !

أنتم أيها القائمون بأمر الدعوة دعاة ، ولستم إلا دعاة ، وأنتم أهل التصحيح والتغيير ، وأهل التقريب والتجميع ،وأهل الود والترغيب ، وأنتم الذين تأخذون بأيدى العصاة والمذنبين من سبل الضلال إلى سبيل الله ، وتمسحون على الأفئدة الحائرة ندى وهدى ،وعلى العقول الضالة خيراً ورشداً ، وتنشرون أرائج الأمل فى رحمة الله ،والترغيب فى ثوابه قبل الترهيب من عقابه .

وأنتم أهل الصدر الواسع إن ضاقت الصدور ، وأولوا العفو إن تحتمت العقوبة، وذوو الوصل إن تمادت القطيعة . . تطوون بساط الوحشة ، وتصلون أسباب المودة والرحمة ، وكل ذلك يتنافى وتوزيع الأحكام على الناس ، واعتلاء منصة القضاء ، وتمثيل مواقف الغلظة ، وجوانب الجفاء والقسوة . . فالدعوة قول لين وليست حكماً قاسياً ، وذكرى نافعة وليست سيطرة بغيضة ، ومرونة طائعة وليست جفاء لا نداوة فيه ولا طراوة .

بعض الدعاة غير مرغوب فيه ؛ فهو عبوس الوجه، غليظ الكلام ، جاف المعاملة ، وإن تبسم أحسست أنها ابتسامة كاسفة ، وإن تقرب كانت الصنعة فى وده والكلفة فى وصله ، فلا يتصرف وفق طبيعته ، كأنه يريد أن يصنع من نفسه تمثالاً يطوف الناس من حوله ، ولا يرى نفسه واحداً منهم ، ولو أنه تبسط وتوسط لكان خيراً له وأنفع ، ولكنه الفهم الناقص ، والانتفاخ الكريه ، وهو أيضاً الجفاء المقيت الذى يؤخر ركب الدعوة كثيراً ،ويحجب عنه ضوء الشمس ونور الحق الساطع !

وظن فرعون أن موسى يريد التملك والسلطة ـ كما يظن الكثير فى الدعاة والمصلحين اليوم ـ وأنه يريد أرض مصر ؛ ليخرج أهلها منها :

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ (1) .

هكذا يثير فرعون قضية الأرض ، وتثار كذلك لاحقاً :

﴿ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴾ (2) .

وهى نفس القضية المسماة اليوم « الوطنية » أو « القومية » حين تستخدم لأغراض خبيثة ، أو لأهواء يتطلع إليها الحاكم المستبد ، وإن كانت «الوطنية » فى حد ذاتها من الإسلام ، إلا أنه يرفض أن توضع فى غير موضعها ، أو أن تُضخم فتصير إلهاً من دون الله !

يثير فرعونُ قضية الأرض ، وهو قد لطخ ترابها بدماء أهلها وأصحابها ، واستغل ثرواتها وخيراتها . . ها قد صارت الآن « أرضكم » ، وقد كان يقسو فيها دون رحمة ، ويطغى دون هوادة ، ويستعبد دون شفقة .

هنا تثار قضية « الأرض » ، وتثار قضية « الانتماء » فى أناس قد انتهكت كل حقوقهم الإنسانية ، وسُلبت منهم حرية الوجود فضلاً عن حرية المشاركة ، ولكنها طريقة الطغاة دائماً ، وهى النغمة المديدة التى يعزفونها على أوتار النفوس المخدوعة المحرومة !

ويقبل موسى التحدى ، وينتهز الفرصة التى أهداها إليه فرعون ؛ بأن يحدد هو موعد المبارزة ، فكان موسى ـ عليه السلام ـ عبقرياً فى تحديد الزمان والمكان :

(1) طـه : 57.
(1) طـه : 63.

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ (1) .

نعم . . موعدكم يوم الزينة وهو يوم عيدهم ، وأن يُحشر الناس أى يُجمعون ، فلا يقتصر الأمر على إعلامهم ، بل يُساقون إلى الحضور سوقاً ، ويُحشرون إلى المكان حشراً ، وأن يشهد العرض الناسُ جميعاً ، ووقت الحشر يكون ضحى ، وهو أبرز أوقات النهار ؛ حتى يقدر الناس على التفريق بين سحروسحر ، وبين كذب وحقيقة ، وبين خداع وواقع .

إنه داع بارع . . ذلك النبى موسى . . حين يستحوذ على عنصرى الزمان والمكان بهذه المهارة الفائقة ، وحين يبدع فى امتلاك أسباب الفوز والنجاح .

فهذا المشهد قد تتوقف عليه دعوته برمتها . . فهو يريد إعلام الناس بحقيقته ورسالته ، ويريد أن يلفت نظرهم إلى صدقه ونبوته ، ويريد كذلك إبطال مزاعم فرعون المتألّه .

إنه يريدها ضربة قاضية ، يريدها فوزاً كاسحاً ، يريدها إعلاناً لا غموض فيه ولا لبس .

إنها مكاسب ثمينة يريد موسى حصدها فى هذا المشهد الحاشد ، وهى فرصة قد أهداها إليه فرعون ، حين ترك له حرية التحديد ، فأبهر موسى دعاة الأرض جميعاً، وأعطاهم درساً بالغاً فى أهمية عنصرى الزمان والمكان ، وأن الداعى الذى لا يحدد الزمن المناسب والمكان المناسب يكون غير جدير بأن ينتسب إلى موكب الدعاة الحافل .

---

(1) طـه : 57 - 59.

يوم الزينة . . حيث نفوس الناس مطمئنة ، وعقولهم صافية ، ونظرتهم واعية ، فلا هموم فى هذا اليوم ولا كروب .

يوم الزينة . . وهو عيد ، يتفرغ الناس فيه للفرح والبهجة ، فلا أشغال فى هذا اليوم ولا أعذار ، فالكل سيلبى الدعوة ، والكل سيشهدها وهو فارغ البال مرتاح الخاطر .

يوم الزينة . . حيث يتسع الوقت للحديث عن هذا العرض المثير ، وعن صدق موسى ، وعن نبوته ورسالته ، وعند تحدِّيه لذلك الطاغية ، وسيظل الناس يتحدثون ويتدبرون طول اليوم ، الممتد من ضحى الشمس إلى غروبها .

قد يذهب الداعى إلى دعوته دون أن يحرص على عاملى الزمان والمكان ، يعدهما من نافلة الدعوة ، ومن زينتها التى قد تُهمل ، فلا يلتفت إليها ، وتراه قد حرص على مادة دعوته ، وعلى تنميق لغته ، وعلى شخصية من يدعوه ،وهو قد أهمل الوقت المناسب والمكان اللائق .

وانتهى المشهد الرهيب ، وتفوقت عصا موسى على سِحر فرعون ، ووقعت المفاجأة التى لم تكن تخطر على بال :

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ (1) .

وانتقلت المواجهة إلى ساحة أخرى ، بين فرعون وهؤلاء الذين آمنوا :

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ (2) .

وانقلبوا إلى دعاة ، وإلى حكماء كذلك :

﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي

(1) طـه : 70.
(2) طـه : 71.

هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ (1) .

أى إيمان هذا ! وأى سلطان ذاك الذى يتسرب إلى القلوب فيستحوذ على كل حناياها ، ويملك عليها كل أقطارها ، فلا يكون لأصحابها منها أى نصيب ! وأية روعة تلك التى ينطق بها الإيمان حين يسرى فى الأرواح !

إنه شيء عجيب حقاً . . فهؤلاء الذين كانوا اللحظة يسبحون بحمد فرعون ، ويقدسونه ويعبدون ، وكانوا من زمرته المقربين ، ومن حاشيته المخلصين . . قد تحولوا فى نفس اللحظة إلى مؤمنين كأحسن ما يكون الإيمان ، وإلى دعاة كأحسن ما تكون الدعوة ، كأنهم مؤمنون منذ ولدوا ، وكأنهم قد مارسوا الدعوة منذ نعومة أظفارهم .

ولا غرو . . فالإيمان حين يخالط القلوب يحيلها إلى حياة بعد ممات ، ويبعثها متدفقة زاخرة ، تنبض بأقوى نبضات القوة والعطاء ، وتعزف أروع ألحان الهدى والصلاح ، وتدب فيها تلك النفخة العلوية التى أودعها الله ذلك الإنسان ، وتشعر وقتها أنها خلق آخر ، وأنها قد ولدت من جديد !

إنه خيط رفيع يفصل بين الكفر والإيمان ، وبين الحياة والممات ، وبين الوجود والفناء ، وحين يتبينه الإنسان يستطيع أن يتخطاه دون عناء ، ويستطيع كذلك أن يحيا حياة طيبة كما أراد الله .

والإيمان حين يخالط قلوبنا يتولد عنه سلطان يسرى فى عروقنا وأوشاجنا ، فيملك علينا تصرفاتنا وخطواتنا ، فى ترنيم بديع ، وتنغيم باهر ، وتأخذنا مشاعر

(1) طـه : 72-76 .

علوية ، وأحاسيس فوقية ، وتطلعات تتعدى حواجز الزمان والمكان ، ونصعد بأرواحنا إلى عليين ، وتمتلكنا النشوة ، وتستحوذ علينا العزة المستمدة من عزة الله .

وننظر - ونحن نُحلق - إلى هذه الدنيا ، فنراها كبيت العنكبوت :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) .

وماذا يملك فرعون من بيت العنكبوت ؟! وما نصيبه من ذاك البيت ؟! فكانت الاستهانة بتهديده ووعيده ، وكان الاستعلاء كذلك ، وكانت هذه المقولة العلوية :

﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ .

هكذا ببساطة شديدة يتحدون فرعون كل تحدّ ، ويتعالون على سلطانه الزائف كل تعال ، بعد أن رأوه - حين آمنوا بربهم الحق - قابعاً كالذر فى بيت العنكبوت !!!

وتمضى بنا قصة موسى - عليه السلام - فى سور قرآنية عديدة ، وتمضى بنا العبر والعظات ، ولكنها تظل مورداً عذباً ينهل منه الدعاة ما شاء لهم دون نضوب أو انتهاء .

---

(1) العنكبوت : 41.

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ

حكمة بالغة ، وفصل هام من فصول الدعوة ، ومعلم من معالم التبليغ وبداية مُلحة للوصول إلى الحقيقة ، وقضية عادلة يطلبها الدين من أتباعه وخصومه على السواء .

ذلك أن من يُلقى السمع يكون قد أمسك بخيط البداية ، ووضع رجله على الطريق الصحيح ، واستقبل الومضة الأولى من النور الساطع .

ومن يُلقى السمع أيضاً يدلل على نية صادقة ، ومعرفة جادة ، واستعداد لا يشوبه لهو ولا لعب .

والإسلام لا يطلب من الناس إلا أن يستمعوا إليه ؛ فهو الحق ، والحق الوحيد ، ودونه هو الباطل ، والباطل الذى لا تختلف فيه الظنون . . والعقل ـ أيّاً ما كان صاحبه ـ سيختار هذا الدين إذا أنصت إليه ، وتخلى عن عوائق السمع ، وشوائب الفكر ، وثقلة الأحكام السابقة ، وعقبة الهوى ؛ وهى كأداء [1]، لا يقتحمها إلا ذوو الإرادة القوية ، والعزيمة الصادقة .

وما استمع أحد إلى هذا الدين ، وهو طليق من كل جاذب ، إلا إذا استجاب ، وكان من أتباعه المخلصين .

وقد علم كفار قريش هذه الحقيقة ، فطالبوا الناس ألا يسمعوا لهذا القرآن ؛ لأن مجرد الاستماع إليه يعنى الإيمان به ؛ فهو معجز فى لفظه وبيانه ، عظيم فى شعائره وأحكامه ، قوى فى تأثيره وسلطانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [2].

---

(1) صعبة.

(2) فصلت : 26.

ومنهم من كان يستمع إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ، بيد أنه منافق ، فيخرج من عنده ولم يستفد شيئاً ، قد منعه نفاقه ، وصدّه استهزاؤه وكبرياؤه ، وحال دون الفهم قلب مكتظ بأدواء هالكة ، وأسقام لا حصر لها :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (1) .

وما كان مطلوباً من المشرك حين يلجأ إلى جوار الرسول إلا أن يسمع كلام الله :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ (2) .

وحين يكون القلب حاضراً ، أو السمع منصتاً ، كانت العظة نافعة ، والذكرى بليغة أيما بلاغة :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (3) .

ولا يستجيب لهذا الدين إلا الذين يسمعون : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ ، أما أولئك الذين لا يستجيبون فهم موتى ، لا فرق بينهم وبين أصحاب القبور : ﴿ ... وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾ (4) ، فهم قد عطّلوا أجهزة الاستقبال قصداً وعمداً ، وغلّقوا منافذ التلقي ، وجعلوا أصابعهم في آذانهم حَذَرَ التأثُّر والتقبُّل ، واستكبروا استكباراً !

غير أن هذه الآية ذات بيان رائع ، حين نقرأ : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ وهنا نقف وقوفاً لازماً ، ليَبْدأ كلامٌ جديد : ﴿ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾ ، فقد شبه الكفار الذين لا يَسْمعون بالموتى . . ولكن الموتى يبعثهم الله ، فليبقوا هكذا دون حراك ، وليظلوا غافلين سادرين ، وليغطوا في سبات عميق ، حتى يبعثهم الله ، وحتى تُمطر السماءُ عليهم خيراً وصلاحاً ، وحتى يأتي من يوقظهم من غفلتهم ،

(1) محمد : 16 .

(2) التوبة : 6 .

(3) ق : 37 .

(4) الآية كاملة ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ الأنعام : 36 .

ويَسقيهم الهدايةَ سقياً . . وهذا استهزاء بهم شديد ، وتهكم كذلك وسخرية .

إنه التهكم ، وإنها السخرية التى تليق بأولئك الذين يعطلون ما وهبهم الله من سمع وبصر وأفئدة ، ويرضون لأنفسهم الغفلة وعدم الإدراك .

لذا كان من الحق أن يبحث الداعى ـ حين يدعو ـ عن ذلك الذى يسمع ؛ فهو الوحيد الذى يُقْبل ، وهو الوحيد الذى يَستجيب كذلك . . فالسمع بداية صحيحة لعقيدة راسخة ، وإيمان لا ضعف فيه ، وعطاء لا يتوقف أبداً .

أما ذلك الذى لا يهمه سوى الجدال والمحال ، وسوى الغوغائية البغيضة ، والثرثرة الفارغة . . فهو من الاستجابة ببعيد ، ومن النفاق قريب جد قريب .

ذلك أن الإسلام يحب التريث فى كل شىء ، ويحب كذلك التفكر والتدبر ، ويرضى لأتباعه أن يسمعوا إليه بقلوبهم وعقولهم ؛ فهو دين ناصع نصوع الشمس ، يتصل بالفطرة اتصالاً وثيقاً ويسرى فى دم البشر أجمعين . . ألا ترى أنه سرى فى دم فرعون ، وهو القائل : أنا ربكم الأعلى ، وإن كان سريان إجبار واضطرار ، ولكنه على كل حال قد سرى . . وسريانه فى قلب طاغية دليل على قوته وسلطانه ، ولا غرابة . . فهذا الدين من قوة الله قد انبثق ، ومن سلطان الله قد أتى .

والسمع صفة الجادّين ، الذين يبحثون عن الحقيقة ، ويرغبون فى الإيمان بها . . أما الجدال والتشدق والثرثرة فهى صفات الذين فى قلوبهم مرض ، والذين يودون قضاء حياتهم لهواً ولعباً !

والسمع الخالص لا يتخلّق إلا فى رحم الحلم والتؤدة والأناة ، ولا ينشأ إلا فى أفئدة العقلاء الحكماء .

أما ذلك الذى يقطع عليك حديثك ، ويود الاستئثار دائماً ، ويتعمد تخطئة الآخرين ، ويتعاجب بعلو صوته ، وشدة محاله ، ويفرح بالتغلب على غيره صوتاً لا عقلاً . . فهذا رجل لسان ، لا رجل حكمة وتعقل ، فالصوت الصاخب يُغطى

دائماً نقصاً عقلياً ، وضعفاً نفسياً . . أما الواثق من فكره وعلمه ، القادر على تمييز الأمور ، فتراه حليماً منصتاً ، يستمع ويحكم ، ويتبع ويستجيب .

ولو استمع الناس بعضهم إلى بعض ، والتقطوا كلام الحق فيما بينهم ، وتخلوا عن غرائز السيطرة والعلو والتنطع ، وابتعدوا عن الجدال والمماحلة . . لما ضاع الحق بينهم ، وما كانت هناك غشاوات وضبابات .

إن رسالة الإسلام تصل إلى الناس حين يستمعون إليها ، وقد علم أعداؤه ذلك ، فراحوا يصدون الناس عن سماع صوت الحق ، ويبعثون أصوات الجلبة والصخب والضجيج من حوله ، فلا يصل إلى آذان الناس شيء ؛ مكراً منهم وحرباً . . غير أن الذين يسمعون إلى هذا الحق ما برحوا يستجيبون ، وما برحوا ـ كذلك ـ مطمئنين واثقين ، لا ينصتون إلى جلبة الشيطان وأعوانه .



..ولَكن لا تحبُّونَ النَّاصحين

وبدأ إبليس بالنصيحة ، قد أسداها لآدم وحواء ، ولكنها نصيحة غش وخداع : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (1) لقد عزهما باليمين ، وكان آدم يظن أنه لا يحلف أحد بالله كاذباً كما قال ابن عباس .

و« النصح » صفة غالبة فى سورة « الأعراف » حين تقص علينا قصص الأنبياء ، فقد نصح « نوح » عليه السلام قومه ، وبلّغ رسالة ربه : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (2).

ولكنّ عاداً تسوء فى أدبها مع نبيها هود ؛ فيتوجه سادتها وكُبراؤها إلى نعته بالسفاهة والكذب : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (3)، فلا ينتصر النبى الكريم لذاته ، ولا يوجه لقومه أدنى عتاب ، ولو اتهم غيُره بما اتهم به لغضب وانتفض ، وثار وانتقم ، ولكنه حلم الأنبياء حين يدعون غيرهم ، وسعةُ صدورهم فلا تنقبض مهما تآزرت الجهالات ، وصفحهم الذى لا يطاله البذاءات ، وعفوهم حين لا تحجبه تلك السفاهات . . ولا يخرج هود عن سمته الهادئ ، وأريحيته المعهودة ، فتراه ينفى الاتهام مجرد نفى دون غضب أو ضيق ؛ بل ما زال تودده قائماً ، ورجاؤه نابضاً حياً : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(4)، ثم يلخص وظيفته ومهمته ، فهو ناصح أمين : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ (5).

---

(1) الأعراف : 21.
(2) الأعراف : 62.
(3) الأعراف : 66.
(4) الأعراف : 67.
(5) الأعراف : 68.

ويواجه « صالح » عليه السلام قوماً من طينة أخرى ، قد ألفوا الاستهزاء وألفهم ، ومردوا على السخرية والعناد ، واستساغوا العلو والاستكبار .

تأمل هذا الحوار بين الذين استكبروا ومن آمن من المستضعفين : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾[1] . والسؤال الذى سأله الذين استكبروا : ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ ؟ ينم عن سخرية كالحة ، وهُزْء كريه . فهم لا يَسألون كى يُجابوا ، لكنهم قصدوا قولهم الأخير : ﴿ إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ ؛ تنكيلاً بالذين آمنوا ، وغيظاً لهم !

ثم تعلو عُنْجُهيتهم ، وتزداد جرأتهم على العصيان والتمرد حين عقروا ناقة الله ، وطالبوا صالحاً أن يأتيهم بعذاب الله : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [2] .

فأى استهزاء هذا ؟! وأى عتو ذلك الذى جُبلوا عليه ؟! وأى صبر احتمله نبى الله صالح حين ظل يدعوهم ، ويبلغهم رسالة ربه ، وهم بهذه الغلظة ، وتلك القسوة وذلك الفجور ؟!

بيد أنها أمانة التبليغ ، وصدق الرسالة ، فلا تبتئس حين تواجه قلوباً هى كالحجارة أو أشد قسوة ، ولا يلين لها عزم حين تجف منابع الاتصال وتصبح صعيداً زلقاً ، ولا تغفو لحظةً حين تغط القلوب فى سبات عميق ، ولا تذبل أوراقها ، أو تغيب ثمارها حين تشتد فى وجهها الزعازع [3] والأعاصير !

وطالما أنهم قد طلبوا العذاب ، فها هو . . رجفة واحدة ، فصاروا هامدين لا

(1) الأعراف : 75 - 76 .
(2) الأعراف : 77 .
(3) الرياح الشديدة .

تحس منهم من أحد ، ولا تسمع لهم ركزاً : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ (1) .

هنا يتراءى لنا مشهد نبى الله صالح ، وقد تنحى جانباً : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ نتطلع إليه ، وهو يتأسف ويتحسر عليهم : ﴿ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ (2) .

نتطلع إليه . . وقد نسى كل إهاناتهم ، وكل عنادهم واستهزائهم ؛ بل لم يتذكر هذه الأمور حين وقعت ، ولم يشغل قلبه بها ؛ فالقلب الموصول بالله حقاً لا تعلق به مثل هذه الصغائر ، ولا تدنسه تلك الإساءات ، فلا يعرف الشماتة ، ولا يفرح لهلاك الآخرين ، ولا يستريح حين يُقضى عليهم فيموتوا ، ولكنه يطمئن إلى جهده وعمله ، ويرتاح إلى نصحه ودعوته .

إلا أن « شعيباً » عليه السلام قد فاضت الحكمة فى دعوته فيضها الزاخر ، وازينت كلماته وأخذتْ بلاغتَها وزخرفها ، وطابت نصائحه ، وحسنت مواعظه ، فكان خطيباً بارعاً ، وداعية من الطراز الأول . . ولكن القوم يقعدون بكل طريق تفضى إلى شعيب ، فيمنعون الراغبين فى الاهتداء ويصدون : ﴿ وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ (3) .

وحين يحاور قومه لا يوجِّه إليهم ذماً ولا تجريحاً ، ولكنه يفترض خطأ إحدى الطائفتين دون تحديد ، فيمنح خصمه فرصة للمراجعة والتقييم ، أو يصبروا حتى يحكم الله بينهما : ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (4) وهذه الفرضية ، وهذا التعميم؛

(1) الأعـراف : 78 .
(2) الأعـراف : 79 .
(3) الأعـراف : 86 .
(4) الأعـراف : 87 .

بعيداً عن الحكم المباشر ، والتجريح المزرى . . يسحر قلوب الآخرين ، ويستميل عقولهم ، ويحول دون جدال عقيم ، أو محاجة لا طائل من ورائها .

وأمر مضحك من سادة القوم وأشرافهم حين يضعون شعيباً بين أمرين لا ثالث لهما : إما أن يخرج من قريتهم ، أو يعود فى ملتهم وكفرهم ، وهو نفس الأسلوب الذى يتخذه الطغاة فى كل زمان ومكان ، لا يتغير ولا يتبدل . ولكن شعيباً يرد عليهم بجملة واحدة : ﴿ قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ (1) وهو رد كله حصافة وبلاغة وإعجاز . . ردٌّ قد أعفاه من أشياء كثيرة أرادوها حين استفزوه بالخروج أو العودة إلى الكفر . . فهذه الجملة لا تزيد الأمور تعقيداً ، ولا تستثير القوم وهم غائظون !

ونفس ما قاله صالح قاله شعيب ، فقد تحسر على قومه وتأسف : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ (2).

ونعود إلى « النصح » . . الصفة الغالبة فى قصص هذه السورة الكريمة ، والركن الركين فى الدعوة إلى الخير والإصلاح .

ولا يبرح « النصح » قائماً حتى يرتفع الخطأ عن البشر ، ولن يرتفع !!! فالبشرية والخطيئة متصارعان متدافعان ، كلاهما يهرب إلى الآخر ، أو يهرب منه ، حسب حالات النفس والروح والإيمان .

وحين يقع الخطأ يستوجب قيام النصح . . ولابد للناصح من محامد عدة ، ومزايا جمة ؛ فلا أقل أن يتحقق من صحة ما ينصح به ، وخطأ مَنْ ينصحه ؛ فالنفس قد جُبلت على الترفع والتعزز ، وتنفر وتشمئز حين تُعاب . . ووضوح الخطأ وقيامه يحدّ من هذه الوطأة النفسية ، وتلك النفخة المتأصلة .

ولكنك واجدٌ ـ مع ذلك ـ من يتأفف لمجرد أن يُنصح ، ولو كان خطؤه واضحاً وضوح الشمس فى رابعة النهار ، فلا يحول ذلك دون النصح والتوجيه معذرةً إلى الله سبحانه ، ولعله يثوب إلى رشده لحظة تفكرٍ واختلاء .

(1) الأعراف : 88.
(2) الأعراف : 93.

ومن المحقَّق الثابت أن يترفع الناصح عن بواعث الفرح والشماتة ، وأسباب الغلظة والجفاء ، ودوافع التسلط والتكبر ، ومواطن الفضيحة والإشهار ، فإن ترفع عن ذلك صار ناصحاً أميناً ، وخاصة إن تحلى بأسلوب رائق ، وتوقيت مناسب ، وإخلاص دفين .

ألا ترى ذلك الناصح الذى يوزع نصائحه على كل غاد ورائح ، كأنه وَصىٌّ على البشرية جمعاء ، فهو فرح بما عنده من العلم والمعرفة ، فخوّر بتبصره وحكمته ، فهذا داعى صَدّ ونفور ، لا داَعى جذب وقبول ، ورجل شهرة ، لا رجل دعوة وإصلاح ، وشخصية مفرقة لا جامعة . . ولو أنه تحلى بالخشية والتقوى ، وتواضَعَ وتَخَفَّفَ من زهوه وازدهائه ، واتسم بالذوق الرفيع ، والشعور المرهف ، لكان نصحه حينئذ موضعَ قبول ورضا ، وتلهف وتطلع ، وانشراح لما يُوجّه إليه ويُرْشد .

والصفة الوحيدة التى تهدم النصح من قواعده هى الكبر ؛ فإن اتصف الناصح بهذه الصفة الذميمة انتفى القبول ، وزال الانصياع ، والتسليم ، فالنصح والكبر متضادان . . وإذا كان التواضع ركن النصيحة وقاعدته المتينة ، فإن مراعاة الحالة التى عليها مَنْ تنصحه ووقت القبول والرضا لديه شرطها اللازم والأكيد . . أما أسلوب النصيحة فإنه من المستحب تهذيبه وتحسينه ، وانتقاء ألفاظه وعباراته . . ويتراءى لك الكلام البليغ ، والأسلوب الفصيح من خلال ما جرى على لسان الرسل الكرام فى هذه السورة الكريمة . . فلفظة واحدة لا تليق قد تَنقض كل شىء ، وكلمة طائشة تصد الآخرين وتنفرهم .

إن النصح ليس كلمة تقال ؛ بل هو علم له قواعده وأصوله ، وله أناسه المخلصون الأوفياء . . ولنا فى رسل الله القدوة والأسوة !

ما جئتنا ببينة

من اللافت فى سورة « هود » عليه السلام تكرار كلمة « بينة » على لسان الرسل الكرام ، حين كانوا يدعون أقوامهم إلى الله الواحد .

ومن روعة الاتساق اللفظى ، وجميل الدلالة على الرسالة الواحدة للأنبياء جميعاً على مر الأيام وكر الأزمان . . كانت البداية مع النبى محمد ـ ﷺ ـ والذين معه : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً . . ﴾(1) .

ثم تبدأ قصص الأنبياء ، وأولهم نوح ـ عليه السلام ـ ، فقد كان على« بينة » من ربه كذلك ، وآتاه رحمة من عنده :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ (2) .

وتأتى بعدها قصة هود مع قومه عاد ، حيث سميت السورة ، وكانت « البينة » كذلك ، ولكن بأسلوب مغاير ، فقد قالوها قبل أن ينطق بها هود : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ ، كأن قد أرادوا قطع السبل فى وجه هذا النبى الكريم ، وقطع خيوط الرجاء فى هدايتهم وإيمانهم .

تأمل ذلك العناد الصفيق ، وهذا الرفض الجازم ، وتأمل كذلك تلك الجمل المتقطعة والحاسمة فى آن واحد : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (3) .

---

(1) هـــود : 17 .
(2) هـــود : 28 .
(3) هـــود : 53 .

كأنْ قد بيَّتوا النية فى عدم الاستجابة ، وكأنْ قد أرادوا أن يريحوا هوداً ، ويوفروا عليه جهده ودعوته ، وأرادوا كذلك أن يُعْلمُوه بردهم الأخير قبل أن يبدأ معهم دعوته ، ودون تمهيد ودون أن يتركوا له فرصَة التبيين والتوضيح ، بل قد أسرعوا إلى الحكم عليه بالجنون ، وأن جنونه راجع إلى آلهتهم التى سبّها وهجرها : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ (1) بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ (2) .

وتأتى بعدها قصة صالح ـ عليه السلام ـ وتعود معها « البينة » إلى صيغتها الأولى ، كما كانت على لسان نوح ـ عليه السلام ـ : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ (3) .

ثم تأتى قصة إبراهيم ولوط ـ عليهما السلام ـ ولا نلحظ هذه « البينة » فالمقام مقام بشرى لإبراهيم ـ عليه السلام ـ ، وإهلاك لقوم لوط ، وليس مقام دعوة وعظة .

ونصل إلى قصة شعيب ـ عليه السلام ـ وذاك الكلام البليغ ، والنصح السديد . . وجاءت « البينة » كذلك : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا . . . . ﴾ (4) .

وتُختتم قصص هذه السورة الكريمة بذكر قصة موسى وفرعون ذكراً عابراً ، دون توقف أو إطالة .

ولم تشأ السورة ، وهى تعرض موكب الرسل الكرام ، إلا أن تشير إلى هذه

---

(1) أصابك.
(2) هود : 54.
(3) هود : 63.
(4) هود : 88.

السنة المطردة : ﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ .. ﴾ (1).

فهلا كان عبر هذه القرون المديدة أولو فضل وحكمة وبينة ينهون عن الفساد فى هذه الأرض ، فيكون ذلك مانعاً لهلاكهم واستئصالهم ، ولكن قليلاً قد قاموا بواجب الدعوة والإصلاح والنهى عن الفساد ، فنجوا وسلموا .

نعم . . قليل هم الذين يقومون بواجب الإصلاح ، وقليل هم الذين يريدون تطهير هذه الأرض من الشر والفساد . . وهؤلاء هم الوحيدون الذين منحهم الله حق الحماية من الهلاك والعذاب ، ومنحهم كذلك النجاة فى الدنيا والآخرة .

بيد أننا نعود إلى لفظ « بينة » التى تكررت على لسان الرسل الكرام فى هذه السورة الكريمة . . وهذه اللفظة تعطى من الإيحاءات والدلالات ما لم تعطه مرادفات أخرى ، ففى ظلها الوضوح والنصاعة ، والصفاء والجلاء ، والبيان والتبيين .

نعم . . إنها البينة . . فليست حماسةً فائرة ، أو اندفاعة حائرة ، أو نشاطاً غير محسوب ؛ يحرك الداعى دون فقه وإفهام . . بل حماس يحكمه وعى ، واندفاع يشده ترو واتئاد ، وجهد يُهذبه تعقل واتزان .

إنها البينة . . فلا يخطو الداعى خطوة دون معلم واهتداء ، ولا يقول كلمة دون دليل وبرهان ، ولا يحكم حين يحكم دون عدل وإنصاف .

إنها البينة . . إن فقدها الداعى سار مع السائرين . . لا يعطى بل يأخذ ، ولا يُصحح بل يُخطئ ، ولا يثوب بل يتجمد . . كلما سارت القافلة خطوة أرجعها أخرى ، وكلما أحرزت تقدماً ، أحرز هو تأخيراً وتعطيلاً ، فهو على غير بينة ، يتخبط خبط العميان ، ويحبو حبو الأطفال . . يحتاج إلى عون دائب ، وتصحيح

(1) هـــود : 116.

مستمر ، ومتابعة فى غير كلال ، كل ذلك لأنه فقد « البينة » ، التى تريح كثيراً ، والتى توفر من الوقت كثيراً ، ذلك أن الذى على بينة من أمره لا يحتاج إلى وقت كى تفهمه ، ولا يحتاج كذلك إلى وقت كى يفهمك ، فتصل إلى النتائج سريعاً دون لف ودوران !

ولا يظن ظانٌّ أن هذه « البينة » إنما تُنشئها سعةُ الثقافة ، وكثرة الاطلاع ، وحفظ الأدلة ، ومقارعة الحجة بالحجة ، ومحاجة الذين يعلمون والذين لا يعلمون . .

بل تُنشئها ابتداءً صحةُ الاعتقاد ، ووضوح الرؤية ، وصفاء النية ، ونقاء السريرة ، وقوة اليقين ، فإن كان ذلك كذلك تحققت « البينة » ، وسَلمت الدعوة ، واتضح الطريق ، وإن كان تزيين ذلك بالمعرفة والاطلاع أرجى وأجدى .

ومما يُسهل على المسلم دعوته أنها تلتحم بفطرة الإنسان ، وتتعلق بروحه وكيانه ، وتقبلها العقول السليمة دون محاجة أو جدال ، فالحق فيها غالب قاهر ، له سلطان باطن وظاهر ، فلا يحتاج الأمر إلى كثير عناء ، أو كبير أدلة ؛ بل يحتاج إلى بينة صادقة ، ونية خالصة ، وتوكل على الله شديد .

كم خسر الإسلام كثيراً حين تصدى للدعوة إليه أناس لم يكونوا فى يوم من الأيام على بينة مما يدعون إليه ، فقدموا صورة مسيخة عن جوهر الدين وروحه ، ولو لم يتصدوا . . ثم نهلوا من منابع الدين قليلاً ، لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً ، ولكنهم أرادوها عرجاء عوجاء ، وأرادوها هوىً متبعاً ، وإعجاب المرء بنفسه دون تقنين أو تثبت ، فخسروا وخسرت الدعوة ، وما زالت تعانى من خَطوهم ونهجهم .

وتَعْجب من ذلك الذى نصّب نفسه داعياً ، وهو جديد عهد بأمور الدين ، قد خرج تواً من حياة ملؤها الجهل والضياع ، قد خالطها فسوق وعصيان . قد قرأ كتاباً أو كتابين ، واستمع إلى خُطبة أو خطبتين ، فرأى من نفسه شيخ الإسلام وحجته ، وتوهم أنه قرين أبى حنيفة ، وخليفة الشافعى ، فتراه يوزع الأحكام ؛ هذا حلال

وهذا حرام ، لا يعجبه أحد ، ولا يروق له عالم من العلماء ، كأنْ قد حيزت له «البينة » بحذافيرها ، ولكنه منها بعيد جدّ بعيد ، قد ضل على جهل ، وتاه بلا دليل ، وتخبط واضطرب ، وتعثر وسقط ، لا توقظه إلا فتنة لا يصبر لها ، ولا تفيقه إلا صدمة لا يقوى عليها ، فيعود أدراجه ، ويمارس حياته الأولى !

وما زال كثير من المسلمين يربطون الدين بـ « البركة » وشفافية الروح ، ولا يعولون ـ فى أمور الدين خاصة ـ على العقل والحكمة ، فانعكس ذلك سلباً على كثير من الدعاة ، فينطلقون إلى دعوتهم دون بينة من أمرهم ، معتمدين على «البركة» وتسهيلات الإله ، فلا يجنحون إلى التحديد والدراسة ، وهذا خطأ جسيم، ونقص فى فهم الدين كبير ، فلابد للداعى أن يملأ جعبته أسباباً ومعايير ، ومعارف ومعالم ، وله فى هجرة الرسول ـ ﷺ ـ القدوة والأسوة .

ولك أن تلحظ ارتباط « البينة » فى الآيات التى ذكرناها سابقاً بالرحمة ، وهذا من باب التوازن والاتساق ؛ فالبينة غالباً ما تميل إلى جوانب العقل والحكمة ، وهى جوانب جفاء ، لا يتواصل معها عامة الناس طويلاً ؛ لذا وجب أن يتبعها رحمة من الله سبحانه !

إن هذه « البينة » التى جاء بها الرسل الكرام ، يجب أن تتحقق فى نفس كل داعٍ، ويجب أن تتثبت ، فلا تشوبها التيارات الهالكة ، ولا يعكر صفوها ضلال وهوى ؛ بل تمنحه قوةً فى الموقف ، وصلابة فى الاعتقاد ، وجسارة عند المحن والابتلاءات .

إن كل رسول من الرسل الكرام قد كان على « بينة » من ربه حين دعا قومه ، كان على علم بما يدعو ، وعلى بصيرة وهدى ،وعلى دراسة وإلمام ، لم يكن يدعو إلى أمر لم يتثبت منه ، ولم يدر شوارده من موارده ، بل كان يدعو إلى أمرٍ جلى واضح ، ويجب أن يكون الدعاةَ كذلك !

الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

قبل أن نلج إلى موضوعنا نتملى هذا المشهد الخاشع ، وإن كان من أصله وصلبه . . نتملاه حياً حاضراً ؛ حين نبصر هذه الأمة من أهل الكتاب وهى قائمة مستقيمة على هَدْى ربها ، لا تركن إلى الدعة والراحة ، ولا تجنح إلى النوم والغفلة ، ترتاد أفق المعرفة فى سبحات ندية لربها الواهب ، كأنها على موعد معه كل ليلة . . فى جوف الليل تتلو آياته ، وهى ساجدة راكعة ، وقد أرخى الليل سدوله على الغافلين السادرين ، ولكنها الهمة العالية ، حين تتغلب على جواذب الدفء والدعة والراحة ، وتتجافى جنوبها عن المضاجع ، تدعو ربها خوفاً وطمعاً ، دونما رياء أو نفاق ، فهو وقت الصفاء ، وساعة الإخلاص الكبير .

إنه مشهد إيمانى خاص ، يتراءى من خلاله صفاء هذا المنهج الربانى حين يُضفى على هذه الطائفة من أهل الكتاب ـ وهم خصوم هذا الدين الألداء ـ ثوب الخشوع والإنابة ، ويخلع عليها سمت القرب والطاعة ، وهو نفس العدل الذى يتصف به هذا المنهج الخالص فى كل شأن من شؤونه ، وفى كل خطوة يخطوها ، لا يفوته العدل مرة ، ولا ينسى الإنصاف لحظة ، ولا يتعداه حتى ولو كان مستحقه أعدى الأعداء ، وألد الخصوم !

إنها الشفافية ، وإنها العظمة والثقة البالغة التى لا تتراءى لك فى منهج آخر علي وجه هذه الأرض قاطبة ، فهو التكامل الذى يستمده هذا المنهج من الله المتصف بكل كمال ، وهو التفرد والتميز والتوحد الذى يستلهمه من الواحد الأحد .

فهم ـ أهل الكتاب ـ ليسوا سواء . فكما أنهم أعداء لهذا الدين ، وأنهم يكيدون ويمكرون ، ويصدون عن السبيل ويخدعون ؛ فهذه حقيقة نشهدها عياناً ، ولكن هناك حقيقة أخرى كذلك ؛ حقيقة هذه الأمة الخالصة منهم ، حين تفيئ إلى جنب

الله فى هدأة الليل ، خاشعة آية ، تتلو وتسبح وتستغفر ، فهذا واقع ، وإن كنا لا نراه ؛ لأنه هنالك حيث الناس نيام ، وحيث يغفل الغافلون .

ويعدد القرآن صفات لهم دون بخس أو هضم ، وينصُّ على أنهم من الصالحين ، وأن أجرهم سيكون وافياً كاملاً : ﴿ **لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ** ﴾ (1) .

وخشعةُ الليل هذه لا تُنسيهم واجب النهار ، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، دون غفلة أو تفريط .

وهناك أمة أخرى أعم وأشمل ؛ إنها أمة الإسلام ، التى أُخرجت للناس ، فهى لم تُخرِج نفسها بنفسها ، بل أخرجها اللهُ سبحانه ، وصنعها على عينه ، وجعلها قمة باسقة تتطلع الأمم جميعاً إلى سموها وسموقها ، دون البلوغ ودون اللحاق ؛ فهى مختارة ومتفردة كذلك ، كما أن رسولها أفضل الرسل على الإطلاق .

وهى حين تكون فى قمتها تنظر إلى سائر الأمم من علٍ ، وتتفاضل عليها وتتمايز ، لا يكون ذلك هبة أو مجاملة ؛ بل له ثمن ، وثمن عظيم ، قد علم الله أنها قادرة على دفعه وتحقيقه ، فهى فى خيرية إلى يوم الدين ، وإن تفاوتت وتباينت .

وهذا الثمن له وجهان ؛ الأخير منه معلوم وثابت ولا تختلف فيه الظنون ، وهو الإيمان بالله ، فهى أمة مهما اشتد انحرافها واستغلظ فلا ينفلت منها إيمان ولا يخبو .

وأما الوجه الأول ، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فيحتاج إلى تذكير

(1) آل عمران : 113 - 115 .

وتجديد وتحقيق : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[1] .

وإذا كانت هذه الأمة المختارة قد تحقق فيها الإيمان بربها ، وتخطت مراحل الشك والارتياب ، وغدت أنأى ما تكون عن معتقدات الباطل ، وشطحات الذين لا يؤمنون ، واطمأنت بدينها الحق دون تطلع إلى سواه ، ولم تعد على استعداد للمساومة أو مجرد نقاش بغيض .

فإذا كان ذلك كذلك ، فإن جانب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو الفيصل فى نيل هذه الخيرية أو نزعها ورفعها دون تشدق بمجدٍ تصنعه الأقوال لا الأفعال .

إن شهادة التميز هذه ، ووسام التفوق هذا مرهون بتحقيق هذا الجانب العظيم ، وموقوف عليه ، وبه يَشيل الميزان أو يميل ، ويرتفع أو يثقل ، ويمنح « الخيرية » أو يمنع ، وتسعد الأمة بالحصول عليها أو تحزن ، وتعتلى القمة السامقة أو تتردى أسفل سافلين ، وتَتسنَّم أثباج المعالى أو تتلبط فى مستنقع الدنايا ، وتمتلك زمام المبادرة أو ينتزعه الشيطان وأعوانه .

إنه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إنه وجود هذه الأمة أو فناؤها ، وإقدامها أو تخلفها ، ووزنها المعتبر أو أن تصير كالريشة تلعب بها الريح حيث تشاء .

إن تحقيق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى المجتمع المسلم دليل على صحة هذا المجتمع ويقظته ورغبته فى الحياة .

فأى مجتمع من المجتمعات مهما بلغت درجة نقاوته ، وشدة صفائه ، تعتريه أدواء وأسقام ، تحتاج إلى تشخيص وتعريف وتحديد ، وتحتاج كذلك إلى تنبيه

(1) آل عمران : 110 .

وتحذير وإنذار ، وإلا تفشت هذه الأدواء وانتشرت كالنار فى الهشيم ، وطغت الطغيان الهالك الأثيم .

والآمرون بالمعروف هم أطباء هذا المجتمع ، وهم الإيقاع السديد الذى يهب لأفراده لحناً متناسقاً دون نشاز أو خروج . ووجودهم فريضة دينية ، وضرورة من ضرورات هذه الحياة . . ولا يرفض المجتمع المسلم هذه الطائفة إلا إذا أراد الانسياح فى رذائل المنكرات ، وبلايا الفواحش ، أو إذا أراد الاحتضار والفناء !

لذا كانت هناك أمة أخرى ، أشد خصوصية ، وأكبر تميزاً ووعياً ، قد اصطفاها الله من أمة الرسول الكبرى ، ليناط بها هذه المهمة البليغة : ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (1) .

وهى حقاً أمة وحدها ، وإن كانت طائفة معدودة ، غير أن قيامها هو قيام للأمة جميعها ، وبقاءها هو بقاء لها .

وهى أمة مطالبة بالذود عن المسلمين جميعاً ، وخَلْق الترياق الذى يدرأ عنهم السموم والأسقام ، والاحتفاظ بالجسد معافى ، ينبض بأقوى نبضاته ، وينهض نهضةَ القوى المتماسك دون تخبط فى ظلمات الإثم ، ومهالك الفواحش والمنكرات .

وهى أمة تحمل شعلة التنوير والتصحيح ، فإن انطفأت فى يدها تاه المسلمون فى ظلمات لا يبصرون ، وغدوا فريسة لكل ناعق زائف .

وهى أمة تضبط إيقاع المجتمع ، وتمنحه قدراً بالغاً من الاعتدال والوسطية ، وشأواً عالياً من التناسق والتوازن والاقتدار .

وحين تضطرب فى يد هذا المجتمع معايير الأخلاق ، وحين ترتعش رعشتها

(1) آل عمران : 104 .

الأسيفة الأليمة ، وحين تهب عواصف التفسخ والانحلال بلا هوادة ، فتأتى على الصحيح قبل العليل ، وحين تموج الفتنة وتمور ، ويعلو صوتها وتنتفخ أوداجها ، وحين يحق العذاب ويجب العقاب ؛ بسبب العصيان والإعراض .

حينئذ تكون هذه الطائفة هى الحصن الحصين ، والركن الركين ، والملاذ الآمن ، وتكون هىَ المانعة ؛ التى تمنع وقوع العذاب ، وتكون المانحة ؛ التى تُبقى لهذه الأمة خيريتها وتميزها وتفردها .

وهذه الطائفة التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتضطلع بهذا الحمل الثقيل ، يجب علينا أن نرعاها ، ونعينها ، ونصبر على أمرها ونهيها ، ونطيب نفساً بأقوالها وأفعالها ، طالما أنها قائمة على أمر الله دون إفراط أو تفريط .

والمعركة التى تخوض هذه الطائفة غمرتها معركة شرسة ؛ فهى تقف ضد أهواء النفس ، ونزوات العقل ، وشهوات الجسد ، وشطحات الفكر ، وتقف كذلك فى مواجهة إبليس وأعوانه ، هذا الذى لايرضى للباطل أن يخبو نجمه ، أو تأفل شمسه ، أو تصفر يده من الغلبة والانتصار .

إنها معركة الباطل تخوضها هذه الطائفة المباركة ، وهى تتحلى بكل صفات الصبر والحلم والأناة ، وكل سمات المبادرة والشجاعة واليقين كذلك ، دون أن تنظر إلى شىء سوى الأجر والمثوبة من الله سبحانه .

وتنجح هذه الطائفة التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر حين تحقق فى ذاتها أشياء ثلاثة :

(1) أن تلزم نفسها أولاً بما تأمر الناس به ، فتضفى على أقوالها وأفعالها ديمومة القدوة الحسنة والأسوة الطيبة دون تساهل أو إغفال .

ذلك أنها قبلة الأنظار ، ومحور النقد والمحاسبة ، ومرجع التصحيح والتعديل ، ومدار الخطأ والصواب .

وحين يغفل الداعى تهذيب النفس ، وصفاء الروح ، وإخلاص النية ، ويعتمد على خطب فصيحة ، وأقوال حكيمة ، وأدلة ناصعة ، وحجج بالغة ، دون أن يخلع على ذلك سمت الرضا والقبول ، وموحيات النفس والروح . . يكون حينئذ كثوبٍ زاهٍ يُخفى جسداً عليلاً ، أو قشرة غضة تُخفى صاباً علقماً !

وأنت حين تدعو إلى شيء تلتزم به ، وتحرص على تطبيقه ، تمنح نفسك نوعاً من التوازن والصدق والجدية ، وتهب كلامك روحاً لا تلبث أن تمتزج بأرواح مستمعيك ، وتتفاعل وتتواصل ؛ بل تنصهر فى بوتقة التأثر والتقبل ، دون أن تبذل جهداً كلاميّاً متراكماً ، ودون أن تحمر أذناك ، أو تنتفخ أوداجك، أو يتساقط عرقك على وجهك مدراراً .

فالإخلاص يضفى على كلامك سحراً خاصاً ، وسلطاناً عجيباً ، وحلاوة لا تتذوقها فى فصاحة الفصحاء ، ولا بلاغة البلغاء !

قد تشهد رجلاً لم يقرأ كتاباً ، ولا يخطّه بيمينه ، ولا يعرف قواعد النحو ألبتة ، ولا يدرى ما البلاغة أو الفصاحة ، ولم يجلس إلى فقيه أو عالم ، ولم يدرس على يد أحدٍ من العالمين .

تشهده وهو يتكلم من وحى قلبه ، وصدق مشاعره ، وإخلاص عمله . . يتكلم فتنصت إليه ، وتُقبل لا تُدْبر ، وتَسمع لا تُعقِّب ، وتجلس كأن علي رأسك الطير ، فتتأثر وتتفاعل ، وتستفيد وتتعلم ، وتوقن وقتها أن فوق كل ذى علم عليماً !

لا يعنى ذلك إهمال التفقه والتعلم ، أو إغفال الأدلة والبراهين ، أو الهروب من المطالعة والمدارسة ، بيد أن الإخلاص أولاً ، وتطبيق ما تدعو إليه هو نقطة البُداءة

التى ينطلق منها الداعية إلى طريقه وهو مالئ يديه ، واثق من كل خطوة يخطوها ، مطمئن إلى رضا الله عنه ، طامع فى ثوابه وجزائه الأوفى .

لذا كان استغراب القرآن من أولئك الذين يأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم ، ومن الذين يقولون ما لا يفعلون : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ (1) .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ (2) .

(2) أن تتوافر لدى الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر نيات عديدة ، ومقاصد شتى ، تنطلق كلها من باب الإخلاص لربه ، ومن باب تعدد الثواب وطيب الجزاء .

فتتوفر لديه النية الخالصة فى أمر أمره الله به ، بغض النظر عن كونها وظيفته الرسمية أو موهبته التى يمارسها دون عناء .

والنية الخالصة فى الكلمة التى يقولها ؛ فلا يكون القصد هو البلاغة والتشدق بألفاظ تبرز قدراته اللغوية أو المعرفية .

والنية الخالصة فى إثبات الحقيقة ، فلا يكون القصد هو الجدال والمحال ، أو الغلبة والانتصار ؛ بل الغاية هى إيصال هذه الحقيقة إلى الناس بحلم وتواضع ووقار .

والنية الخالصة فى الشخص الذى تعظه وتنصحه ، فتكون حريصاً على اهتدائه ، فليس الأمر مختصراً على إقامة الحجة على الناس ، والوصول إلى تخطيئهم ، دون أن تدعو لهم ، وتشفق على ذنوبهم ، وتُشعرهم بالود والقرب والرحمة .

---

(1) البقرة : 44 .
(2) الصف : 2 - 3 .

والنية الخالصة بعد الانتهاء ؛ فلا تفتخر بأنك سبب هذا التغيير ، وذاك الإصلاح ؛ بل تحمد الله على التوفيق ، وتستغفر من نفاق قد لا تعلمه ، أو تقصير لم تقصده .

نيات عديدة يجب أن تتلاقى فى قلب من يدعو الآخر ، حتى لا يذهب عمله سُدى ، وحتى لا يصير هباءً منثوراً .

(3) أن يكون الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر على دراسة بما يأمر وبما ينهى .

فإن كان واعظاً فإن الأمر أسهل وأوسع وأعم ؛ فالواعظ لا يحتاج إلى كثير علم، أو عظيم فقه ، أو كبير أدلة وبرهان ، بل يحتاج أكثر إلى شفافية وقبول ، ورضا شامل ، وإخلاص دفين ، وروح آسرة ذات جاذبية وتأثير وحضور .

وهو القادر على تحريك المشاعر ، وتأجيج العواطف ، فتراه يعزف على أوتار النفوس ألحاناً قوية ، فتدفعهم إلى التضحية والبذل والعطاء دون أدنى شح أو فتور .

وهو كذلك يعاطف القلوب ، ويستحث الطاقات و وقد يملك بناصيتها حيث شاء .

من السهل أن تكون واعظاً ، فتختار موضوعاً من موضوعات الحياة العريضة ، أو درساً من دروس القلوب والأرواح ، فتبدع إبداعاً ، وتؤثر تأثيراً وخاصة إنْ دبَّجته بالشعر والحِكَم والأمثال .

وإذا كان الوعظ أعم ، فإن النصح أشد عموماً ، يمارسه أى شخص نتيجة موقف لم يعجبه أو رآه خطأ قد جاوز الحدود .

الأب يمارس النصح ، وكذلك الأم ، ومعها الأخ الأكبر أو الصديق الحميم ، أو الجار ، أو المعلم ، أو أى فرد قد لازمك قليلاً أو كثيراً .

والآمرون بالمعروف غير الوعّاظ وغير الناصحين ؛ فهم طائفة تحتاج أقوالها وأوامرها وتوجيهاتها إلى توثيق وإثبات وأدلة وبراهين .

أنت تأمر بمعروف ، هذا صحيح ، ولكن لابد أن يكون هذا المعروف معروفاً حقاً ، فيستند إلى دليل ناصع ، وواقع مشهود ، وحقيقة لا شبهة فيها ولا التباس .

أنت تنهى عن منكر ، هذا حق ، ولكن مع مراعاة خصوصيات الناس ، وعدم كشف العورات ، وعدم الركون إلى أقوال طائشة أو كلمات تخرج من أفواهٍ اعتادت القيل والقال والغيبة والنميمة دون برهان أو دليل .

إنه عمل يحتاج إلى درجة عالية من الوضوح والبيان ، ويرتكن إلى رؤية لا غشاوة فيها ولا ضباب ، ويميل إلى الفصل والقطع لا إلى الامتزاج والاختلاط ، ويتطلب فقهاً وعلماً لا مجرد وعظ وإرشاد .

كل ذلك لأنك تأمر وتنهى ، فأنت فى موضع قوة ، وموطن سلطة ، فلابد أن تكون على بينة من أمرك ونهيك ، وأن تحيط بما تقوم به من جميع الجوانب ، وأن تقف على أرض ثابتة لا نتوء فيها ولا اعوجاج .

قد لا تملك السلطة المطلوبة أحياناً ، وقد يكبر عليك تغيير المنكر ، وقد يعلوك علواً كبيراً ، فلا أقل حينئذ من أن تكون صاحب سلطة روحية ؛ فيعترى قلبك وهجٌ من الغيرة والحَميَّة ، فتراه يحترق حزناً وكمداً على أمر قد انتهكت فيه حرمات الله ، فينال ساعتئذَ من الإيجابية ما ينال ، ويطلع الله علىَّ قلبه القوى وقدرته الضعيفة فيمنحه قدراً من الثواب والجزاء ، فقد قام بشىء لا يمكن أن يذهب سدى ، أو يكون هباءً منثوراً .

وقد كان الرسول ـ ﷺ ـ حكيماً كل الحكمة حين أشار إلى حالات تغيير المنكر ، مراعياً واقعاً مشهوداً ، وقدرةً متفاوتة ، وتدرجاً لابد منه .

فعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « **من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان** » (1) .

وهذه حالات تسرى على كل مسلم ، فليس هناك طائفة تختص بتغيير المنكر بيدها ، وأخرى بلسانها ، وثالثة بقلبها ، وإلا اتكل بعض الناس على بعض ، أو ارتكن الجميع إلى تغيير القلب ، فتنطمس معالم الخير فى المجتمع المسلم ، وتشيع الفاحشة فى الذين آمنوا .

فالشخص الواحد قد يرى منكراً أمامه فيغيره بلسانه ، ويرى نفس المنكر فى بيته أو فيمن له سلطة عليهم فى عمله أو وظيفته فيغيره بيده ، وقد يغيره بقلبه فى مواطن أخرى لا يقوى فيها على مجرد التحدث ، فلا تَنْبس شَفَةٌ بصوت !

قد يبدو الامتعاض فى وجهك ، وتضرب كفاً بكف ، وتقوم وتقعد ، وقد تكلم نفسك وحدها ، فالمنكر أمامك واضح بيِّن ، وحرمات الله تُنتهك ، فلا تقدر وقتها على التدخل أو التغيير ؛ لأنك تعلم أن ذلك يُحدث فتنةً لا فكاك منها ولا خروج ، أو يتسبب فى ضرر بالغ أو هلاك مبين .

وقتها تصطرع فى نفسك خواطر متباينة ، وتضطراب أنفاسك فى صدرك ، تريد أن تنهض ؛ لتغير بيدك ، فتعجز . . فهذه هى الصورة المقبولة حينئذ لتغيير المنكر بالقلب ، وليس سواها مما يتساهل الناس ويفرطون .

والتغيير باللسان حالة وسط ، تتناسب أكثر مع جمهور الناس ، فالقدرة على الكلام تتوفر فى أحايين كثيرة ، قد يكون ذلك علناً ، وقد يكون على سبيل الإسرار .

---

(1) رواه مسلم

وهى الحالة التى يتم فيها تغيير المنكر كثيراً ؛ فتغيير اليد قليل فاعله ، وتغيير القلب هو أضعف الإيمان ، فيركن الناس إلى تغيير اللسان غالباً .

ومن صفوة القول أن تغيير المنكر باليد يصب فى جانب ذوى الأمر والسلطان أكثر من غيرهم .

فإذا كانت القوة والسلطة والمهابة لا تأبه بالتغيير والإصلاح ، ولا تعبأ بانتهاك الحرمات وإشاعة الفواحش والمنكرات ، ولا تحرك ساكناً ، ولا تغضب مجرد غضب ، ولا تمتعض أى امتعاض .

إذا كانت كذلك فإنها سلطة دنيوية ، لا يهمها الدين فى كثير أو قليل ، ولا تلتفت إلى تعاليم ربها ، ولا تحرص على النجاة فى الدنيا والآخرة .

تكون سلطة لا وزن لها فى ضمائر الناس ولا قيمة ، ولا أصل لها ولا فرع ؛ بل تكون أشبه بمن يملك عصا ولا تقوى يداه على الانتفاع بها .

هناك سلطة تُقيم الدنيا ولا تقعدها حين ينتهك الناس أمراً من أوامرها ، ولا تتحرك لها شعرة واحدة حين ينتهكون منكراً قد نهى الله عنه وهو شائع عميم .

وهى بهذه السلبية الفجَّة فى أمور دينها ترتكب خطأ جسيماً ، وجرماً لا براءة منه !

فهى تحكم مجتمعاً يُفترض أن يكون مسلماً ، وفيه من الغيورين من يرفض هذه السلبية ، وينفر من هذا الخلل ، وقد يجنح بعضهم إلى التغيير باليد ، بنية بريئة أو خبيثة ، وبطريقة عاقلة أو غير عاقلة ، ظاناً أنه البديل ، وأنه يقوم بواجب قد غفلت عنه حكومته أو مجتمعه ، فتعم الفوضى ، ويختلط الحابل حينئذ بالنابل ، ويتسع الخرق على الراقع ، وتنفرط مسبحة التوازن بين أصابع الناس جميعاً ، وكأن الطامة الكبرى قد جاءت ، والقيامة قد قامت !

ولابد عقلاً أن تكون السلطة تخاف ربها حتى تستطيع أن تنهض بعبء التغيير والإصلاح ، وحتى تقدر على القيام بواجبها الدينى والدنيوى دون فصل بينهما ، ودون إقصاء أحد منهما .

ومن تنقيح القول كذلك أن التغيير باليد لا يقتصر على أصحاب السلطة وحدهم ؛ فهناك حالات كثيرة تستلزم هذا النوع من التغيير ؛ كالأب فى بيته ، والمعلم فى فصله ، والمسؤول فى وظيفته ، وغيرهم ممن يملكون نوعاً من القوة والمهابة .

والحكمة لابد أن تكون لازمة الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر وهاجسه وفيضه الدافق أبداً .

ذلك أن صاحبه يخاطب أمزجة متقلبة ، وعقولاً متفاوتة ، وأنفساً قد جُبلت على التعزز والأنفة ، تحتاج إلى مسحة من التودد والتقرب حين تُعاب أو تُنقد ، وإلى وقفة من الفطنة والتعقل حين تُوجه أو تُؤمر ، وإلى كثير من الإخلاص ؛ بل كله حين نزن حركاتها وسكناتها بميزان الله الذى يستقر فى فطرة الناس جميعاً دون استثناء .

وغياب الحكمة عن الأمر بالمعروف يؤدى إلى النفور وعدم التطبيق ، وغيابها عند النهى عن منكر يؤدى إلى منكر أشنع وذنب أبشع . . حتى لو اضطررت إلى الجدال . . كان بالتى هى أحسن : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ (1) .

---

(1) النحل : 125 .

ومهما كانت مبررات الحكمة عقلية ومنطقية ، فإن الدعوة إلى سبيل الله لابد وأن تكون حسنة بكل معانى الحسن ، وحكيمة بكل عطاءات الحكمة ، ورضيَّة كل الرضا ، وحبيبة إلى كل نفس ، ندية لا خدش فيها ولا محال ؛ فهى دعوة - قبل كل شىء - إلى سبيل الله ، وليس إلى سبيل أحد سواه ، فهى سبيل كلها رحمة وقرب وود ، وكلها عقل وحكمة وفقه ، ولابد أن تكون طريقة التوصيل إليها بنفس المواصفات ، وبنفس المعايير .

كثير من الداعين إلى سبيل الله تنقصهم الحكمة ؛ فيميل إلى أسلوب التوجيه الصارم ، والأمر الجاف ، والوعظ الجامد ، ويميل إلى الفرض والهيمنة دون الأخذ والرد ، وإلى التعالى والفوقية دون التودد والقرب ، وتراه يتعاجب بمكانته أحياناً ، وبثقافته أحايين أخرى !

كثير من سالكى طريق الدعوة يقدمون صورة جزئية أو شكلية عن الإسلام .

فمنهم من يرى الإسلام ثوباً قصيراً ولحية غليظة ، هكذا حصر الإسلامَ ، وهكذا تصور ، كأن ذاك ركن سادس أضيف إلى أركان الإسلام المعهودة ، فتبدأ دعوته من حيث الشكل ، عندها تطيب نفسه إن استجيب لما يدعو إليه ، ويطير فرحاً أنْ ضم إلى كتيبة الإسلام شكلاً جديداً ، وليس جندياً قد فقه ووعى .

ومنهم من يرى الإسلام سيفاً وقتلاً ، وفرضاً وجبراً ، كأنهم أرادوا القمة دون تدرج ، ودون سلم وصعود ، وكأنهم أرادوها منافع دنيوية ومكاسب مادية ، أو مناصب وسلطة لا دعوة وحكمة .

ومنهم من يوقف الإسلام على الوعظ والإلقاء ، دون أن يشخص الداء ، أو يصف الدواء ، أو يسلك مسالك المربين المصلحين .

صور كثيرة تُجَزِّئ الإسلام قطعة قطعة ، كل حزب بما لديهم فرحون .

ماذا لو اتحدت جهود الدعاة ؟! وتلاقت سبل العاملين فى ميدان الدعوة إلى الله؟! فهم أولى الناس بالتلاحم والتماسك بدلاً من التشاحن والبغضاء .

هنا . . كانت الصورة متكاملة ؛ صفقة عقدها الله مع الذين يقاتلون فى سبيل الله ، فاشترى الأنفس والأموال مقابلة الجنة . . وهم فى قتالهم وفروسيتهم ، وفى تجردهم ، وإخلاصهم ، كانت صفاتهم غير متجزئة ، كأنْ قد اجتمعت فى ساحة الإسلام الشامل ، فى صورة وضيئة رضيَّة ؛ فهم تائبون عابدون حامدون سائحون راكعون ساجدون ، ومع ذلك آمرون بالمعروف وناهون عن المنكر !

إنه درس بالغ ؛ فيه تتجلى صفات الإنابة والحمد والخشوع جنباً إلى جنب مع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لتضفى على الصورة لوناً من القبول والرضا ، ونوعاً من التوازن والتكامل . . وكأن هؤلاء التائبين العابدين الحامدين هم الذين يستحقون - دون غيرهم - أن ينزلوا ميدان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فهم يمتلكون صفات التأهيل والترقى ، كما أن الحكمة لن تتولد إلا ممن يتحلى بهذه الصفات كلها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (1) .

وإذا كانت الحكمة هى لازمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقاعدته ، فإن البصيرة هى منهجه ومادته : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (2) .

وكلاهما يُولدان معاً كالتوأم ؛ فلن تتحقق حكمة دون بصيرة ، ولا بصيرة دون

(1) التوبة : 111 - 112 .
(2) يوسف : 108 .

حكمة ، فهذا يرفد ذاك ، وذاك يمد هذا ، فى غير ما انفصام ولا إفراد .

والداعى حين يكون على بصيرة فإن ثمار دعوته تكون يانعة ، ونتائجه باهرة ؛ فهو فاقه فى دين الله ، على ثقة من نصحه ووعظه ، على علم بأدلته وبراهينه ، يتلمس الداء ، فيهتدى إلى موضعه دون ضلالة ، فيمنحه دواءه الناجع دون مضاعفات ، ودون ألم أو شكاية ، فهو طبيب حاذق جد حاذق ، لم يصل إلى ما وصل إليه اعتباطاً أو كرمية بلا رام ؛ بل يرمى حيث يدرى أنه هو الرامى ، ويصف حيث يدرى أن وصفه هو الصحيح الناجح ، ويعالج الموقف بلا تضخم أو إضرار .

إن هذه البصيرة التى نتحدث عنها هى نادرة النوادر التى افتقدناها فى دعوتنا الإسلامية اليوم ، والتى انضم إليها كل من هبَّ ودب ؛ فنصب كثير من الناس أنفسهم دعاة ، وما هم بدعاة ! وتزيوا بأردية ليست على مقاسهم ، فرآهم الناس على صورة بغيضة ، ونسبوها للإسلام ظلماً وزوراً !

إن « البصيرة » فى دعوة الله ضرورة من الضرورات ، وفريضة من فرائضها ، يجب أن يتأكد صاحب الدعوة من تحقيقها وإثباتها قبل أن يرتدى ثوب الواعظ الناصح ، وقبل أن يلتحم بالناس ويخالط ، والا فليرضَ لنفسه بالاستماع إلى غيره عن استماع غيره إليه !

والحكمة والبصيرة تتولدان عن قلب يحب دعوته ويخلص لها ، فلا تُنشئها وظيفة رسمية ، أو مهنة فُرضت بلا اختيار .

وحين تتحقق الحكمة والبصيرة لابد وأن يولد من رحمهما اللين والرفق : **﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾** (1) .

وكثير من الناس يظن أنه إذا اهتدى لا يضره من ضلَّ وغوى ؛ فيدع الأمر

(1) آل عمران : 159 .

بالمعروف والنهى عن المنكر ، قد ظن أنه فى يوم القيامة ، ولسان حاله يقول : نفسى نفسى . . وقد يرتكن إلى هذه الآية الكريمة : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ** ﴾ (1) .

وقد فصَّل الأمر فيها أبو بكر الصدِّيق ، وبيَّن ووضح ، فلم يبقَ لكسول تعلة ولا عذر :

عن أبى بكر الصدِّيق ـ رضى الله عنه ـ قال : يا أيها الناس إنكم لتقرؤون هذه الآية : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ** ﴾ ، وإنى سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « **إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يَعُمَّهُم الله بعقاب منه** » (2) .

غير أن الآيات فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كثيرة وعديدة ، لا يحتاج ذلك إلى إتعاب ذهن أو عناء بحث ، فهذه الصفة قد غدت لازمةَ المؤمنين والمؤمنات : ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (3) .

يقابلهم منافقون ومنافقات يحاولون الهدم ، ويحاولون إفشال الجهود وإهدارها ؛ فيعملون على النقيض : ﴿ **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (4) .

وكانت الصلاة والزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ركائز المجتمع المسلم الآمن حين يقوى ، وحين يُمكن له فى الأرض .

---

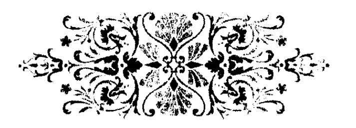
(1) المائدة : 105 .
(2) رواه أبو داود والترمذى والنسائى .
(3) التوبـة : 71 .
(4) التوبـة : 67 . .

فالتمكين يعنى غلبة المال والمتاع ، وكثرة اللذائذ ، وتفشى الدعة والترف ، وتملك الأفراد لكل مقومات حب الدنيا ، والانغماس فى نزواتها وشهواتها ، والتفرغ لذلك كل تفرغ ، بعد أن أمنت وتملكت ، وألقت سلاح الجوع والخوف ، وحلّ مكانه التبسُّط والتروُّح .

ومن أجل ذلك كانت الزكاة ؛ صيانةً لهذه النعم ، وكان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ دحراً للشهوات والمنكرات ، وكانت الصلاة الجانب الروحى الأعلى الذى يضمن للمجتمع الآمن اتصاله الوثيق بربه : **﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾** (1).

وعند التمكين أو غيره لابد أن يكون الداعى قوياً فى نفسه ، واثقاً من شجاعته ، فلا يخشى أحداً غير الله : **﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾** (2).

إنها صورة متكاملة ومتوازنة ، يجب على الداعى أن يحيط بكل جوانبها ، وأن يلم بكل مصادرها ومواردها دون إغفال أو إهمال ؛ حتى تنجح دعوته ، وحتى تطيب نفسه بما عند الله من نعيم أسنى وجزاء أوفى .



(1) الحج : 41.
(2) الأحزاب : 39.

قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ..

وانقسم أهل القرية حيال الأمر الإلهى ثلاث فرق ؛ واحدة تمارس المعصية ، قد اعتدت وفسقت ، وتجبرت وطغت ، وتمردت أيَّ تمرد .

وأخرى تزاول دور الوعظ والنصيحة ، قد أنكرت على ذوى الخطيئة خطيئتهم ، فخَوَّفت وحَذَّرت ، وفَصَّلت القول وبَيَّنت ، ولم تقطع خيط الرجاء ، ولم تيأس فى رجوع العاصين إلى ربهم وخالقهم .

أما الفرقة الثالثة . . فقد وقفت موقف المشاهد المتفرج ؛ فهى لم تقترف إثماً ، ولم تنه عن منكر ، فرفعت يديها ، واستعجلت نزول العذاب على الذين فسقوا ، وحكمت فيهم حكمها ، واطمأنت إليه ، فقبعت فى زاوية ضيقة ، تطل منها على الطائفتين ؛ تبصر الذين يعصون ، وهم يزاولون معصيتهم ، قد لاحقهم الذين ينهون عن السوء . . تخال أنها فى مأمن حين تنزوى إلى ركن بعيد عن مسرح الأحداث ، قد أخلت ساحتها من كل مشاركة أو تبعية ، ورضت لنفسها بالسلبية دون دور أو تأثير !

وصفوة القول أن القرية كانت حاضرة البحر ، رزقها قائم على الصيد ، فأراد الله سبحانه أن يختبرها بسبب فسقها وعصيانها ، فحرم على أهلها الصيد يوم السبت ، وأباحه فى غيره ، فكان « السمك » - يوم سبتهم - يأتيهم شُرَّعاً ، قد ضاق به الماء ، فيعلو على سطحه أمواجاً متلاطمة ، فإذا انقضى يوم السبت غاب واختفى ؛ ابتلاءً من الله لهم وامتحان . . فاحتالت طائفة منهم ، فجعلت تحجز حيتانها حتى اليوم التالى ، فتأخذها وتأكلها دون مبالاة . . تلتف حول الأمر الإلهى وتدور ، فلم تقَو على الابتلاء ، ولم تحتمل ذاك الاختبار . . قد سال لعابها حين أبصرت الحيتان ظاهرة على وجه الماء ، فمكرت كل مكر ، وخادعت أيما خداع !

ولو أنها عصت عصياناً مباشراً ، فاصطادت يوم السبت ، لكان ذلك أوضح وأظهر ؛ فالذنب معهود ، والشعور به قائم . . أما أولئك فقدأقنعوا أنفسهم أنهم لم ينتهكوا حرمات الله ، وأن سبتهم ما زال مصوناً محرماً !

وتدخلت الفرقة الناهية ، فما برحت تدعو وتعظ ، وتنذر وتحذر ، لا يصيبها ملال أو فتور ، ولا يعتريها يأس أو قنوط ، تُبرئ ذمتها من أسباب القصور ، وتُخلى ساحتها من دواعى الإهمال والقعود ، معذرةً إلى ربها ، ولعل العصاة ينتهون . . فاستحقت تلك الناهية النجاة ، وحلَّ بالعاصية العذاب ، وناسب «الساكتة» الإهمالُ والإعراض والنسيان .

تدبّر القرآن وهو يقص علينا نبأ هذه القصة الفريدة : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ (1) .

وليس هناك أدل على لزوم الوعظ والنصح ، وضرورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من هذه الوقعة التى سجلها القرآن الكريم ، وقص علينا نبأها .

فالإسلام لم يجىء يوماً ليقبع كل تابع من أتباعه فى ركن بعيد ، يتقوقع فيه حول نفسه ، يخشى الخروج ، ويتوجس من المواجهة والتغيير ، ظاناً أنه يدرأ عن ذاته سموم الاختلاط والتزاحم ، وأنه يمنحها نوعاً من التهذيب والتشذيب ، والصقل والتربية ، والورع والزهد والإنابة .

وهو فى هذه المحاولة شديد الأنانية ، كثير الشح ، عظيم الأثرة ، لا يحب إلا

(1) الأعراف : 163 - 166 .

نفسه ، كأنْ قد أراد دخول الجنة وحده ، وما هو بداخلها دون حب الخير لعباد الله ، ودون وعظهم ونصحهم !

وهو كذلك - فى هذه التربية المغلقة - لن يصل إلى شىء ذى بال ؛ فهناك مواطن من التربية والتجريب لا يصنعها سوى الناس والمجتمع ، فضلاً عن ضياع كم هائل من الحسنات ، لا يمكن تحصيلها دون مواقف اجتماعية متعددة ، أشار إليها القرآن الكريم ، والسنة المطهرة .

وهذا الرجل الذى انزوى جانباً ، لا يبالى بمعاصى الناس وأخطائهم ، ولا يهتم بظلمهم وجحودهم . . هذا الرجل سيطاله العذاب - حين وقوعه - لا يحميه جدران زاويته التى يتعبد فيها ليل نهار !

فما كان الصلاح الشخصى - فى يوم من الأيام - شرطاً للنجاة ؛ بل الصلاح والإصلاح هما الضمانة الوحيدة للسلامة والإفلات :

* ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (1) .

* وعن حذيفة - رضى الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال : « **والذى نفسى بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف ، ولتنهونَّ عن المنكر ، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم** » (2) .

وليس مانعاً من ديمومة الدعوة والإصلاح فداحةُ المعصية ، أو قساوةُ قلوب الظالمين ، أو تطرُّقُ اليأس فى اهتدائهم واستقامتهم . . وإلا ما أُرسل موسى إلى فرعون ، وما ظل نوح داعياً قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وهم يُضلون عباد الله ، ولا يلدون إلا فاجراً كفَّاراً !!

---

(1) الأنفال : 25.
(2) رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن .

فالهداية خاصية لا يملكها إلا الله سبحانه ، وهو وحده الآخذ بناصيتها ، وهو الذى يهبها حين يشاء : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾(1)، وهو الذى يحول بين المرء وقلبه ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾(2) ، فالأمر والنهى قائمان دون تعطيل أوتمييز ، والوعظ والنصح دائبان حين تلين القلوب وحين تقسو ، وحين يُرجى هدايتها وحين ضلالها يزيد . . فرجاء الثواب هو المأمول ، وإقامة الحجة هو الغاية ، وأن نعذر عند الله يوم القيامة هو المنجى والمخرج .

ويخطئ كثير من الناس حين يعدون الوعظ والنصح نافلة ، لا ترقى إلى مرتبة الصلاة والزكاة ، وسائر عبادات الدين ، أو أنها خاصة برجال الدين من الوعاظ والأئمة .

وليس فى الإسلام رجال دين ، وليس فيه كهنة ولا سدنة ، وليس هناك تكليف يقوم به مسلم دون مسلم ، إلا حين يُكتفى . . فالتبليغ ـ ولو آية واحدة ـ لازم ، والنصح ـ ولو حديثاً واحداً ـ ضرورة إسلامية ، وحتمية اجتماعية .

فالمسلم الصادق حين يملأ الإيمان قلبه ، وحين يسرى فى عروقه ودمه ، ثم يرى حرمات الله تنتهك ، وحدود الله يُعتدى عليها ، فإنه يغضب أشد الغضب ، ولا يهدأ روعه إلا إذا بلَّغ ونصح وأنذر وحذَّر ، وقال كلمةَ الله دون تردد أو تلعثم ، واتخذ من الحكمة سبيلاً ، ومن الجدال بالتى هى أحسن طريقاً . . فإذا لم يكن هذا دأبه عند وقوع المنكر ، فإنه فى إيمان خللاً ، وفى صدقه ريبة ، وفى خوفه من الله ومراقبته شكاً مريباً !

صحيح أن هناك تغييراً بالقلب ، وهو أضعف الإيمان ، وصحيح كذلك أن هناك مصلحين قد وهبوا حياتهم للدعوة والإصلاح ، وأن هناك فقهاء وعلماء عليهم دور كبير فى التوجيه والتصحيح والإرشاد ، إلا أن المسلم مهما كان موقعه ، ومهما كانت مكانته وثقافته ، فإنه يحمل همَّ هذا الدين ، يتحرك به أنَّى سار ، ويتكلم به

(1) القصص : 56.
(2) الأنفال : 24.

حين يتكلم ، ويستطيع أن يبلغ كما يبلغ الفقيه العالم ، بل قد تجلس إلى رجل أشعث أغبر ، قد امتلأ قلبه يقيناً ، وفاض لسانه صدقاً ، سيماه فى وجهه من أثر السجود والإخلاص ، وهو فى كل ذلك لا يحمل شهادة المتنورين ، ولا يعرف بلاغة الفصحاء المتشدقين . . بيد أنه حين يَنصح تقبل إليه ، وحين يَعظ تنصت إليه ، وحين يُحدثك عن الله الواحد ، أو عن الرسول الخاتم ، أو عن الدين والدنيا . . تجد فى حديثه ما ليس فى كتب الفقهاء العلماء . . ذلك أن للإخلاص حديثاً لا نقدر على تدوينه ، وللصدق والصفاء بلاغة لا تعرفها أقلام الباحثين !

كم من قرية حاضرة البحر وغير حاضرة . . عصت وطغت ، وتمردت واعتدت ، فأتى الله بنيانها من القواعد ، فخر عليها السقف من فوقها ، وتقاتل أبناؤها أو تفانوا ، وشُردوا فضاعوا ، أو جحدوا النعم فجاعوا . . ولو أن فيهم تلك الفرقة الناهية ، التى تحض على الخير ، وتدعو إليه ، كشف الله عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ومتَّعهم إلى حين !

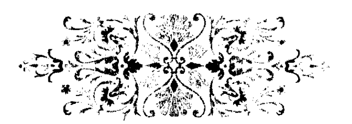
وقد هلكت « حاضرة البحر » ، حين اعتدت يوم السبت ، وهنا وهنالك من القرى التى تعتدى كل أيام الأسبوع ؛ فتراها متبجحة ليل نهار ، وعاصية صباح مساء ، ولكنها ليست فى مأمن من عذاب الله ، فهو آت لا محالة ، وواقع لا ريب فيه : ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** ﴾ (1) .

ولعلك تعجب حين يهمل القرآن ذكر التى قالت ﴿ **لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيداً** ﴾ فلا تدرى إن كانت نجت مع الذين نجوا ، أو كانت مع الهالكين !

وأيّاً كان مآلها . . فإن إهمال ذكرها ، وغض الطرف عنها نوع من الإعراض عن فعلها ، وعدم رضا حين سكتت ؛ فلم تنه عن منكر ، ولم تحرك ساكناً . . فلم

يقل الله سبحانه أنجينا الذين أطاعوا أمرنا ، ولكنه نصّ على نجاة الذين نهوا عن المنكر ، كأنه قصد إلى إهمال الذين سكتوا قصداً ، رغم أنهم لم يصطادوا يوم سبتهم ، ولم يقترفوا إثماً ، ولكنهم لم يغضبوا لله سبحانه ، ولم يعظوا مع الواعظين ، فعُمِّيتْ علينا نهايتُهم ، فكان هذا نوعاً من العذاب المعنوى ، حتى لو نجوا مع الناجين !

إننا هنا أمام قضية هامة ، يجب أن يلتفت إليها الناس أجمعون . . إنها قضية الوعظ والنصح ، والدعوة والإصلاح . . فتحقيق هذا الجانب يُعد بمثابة صمام الأمان الذى يدفع عن قرية من القرى ، أو أمة من الأمم . . يدفع عنها النقمة والعذاب ، ويدرأ عنها أسبابَ الغضب ، ودواعى الهلاك والدمار !



(1) الإسراء : 16 .

قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ

كان الله فى عون موسى ـ عليه السلام ـ حين يُكلف بدعوة أعتى الطغاة ؛ فرعون المتألّه ، وحين يُرسل إلى قوم كبنى إسرائيل .

لقد كانت مهمته صعيبة ، تَطلب صبراً لا حدود له ، وتحملاً لا نهاية له ، لكنما هو موسى ؛ من أولى العزم ، ومن المصطفين الأخيار !

ونحن أمام حلقة من حلقات المواجهة بين موسى وقومه ، إذ هرعوا إليه فى قتيل لا يدرون قاتله ، فيجىء الأمر من الله سبحانه على غير ما توقعوا : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً** ﴾

وتَشْرع الجبلةُ المنحرفة تمارس دورها ، وتبدأ الفطرةُ المعوجة تتلكأ وتتمحل ، فيتعجب القوم ، ويعتبون على نبيهم أن اتخذهم هزوا : ﴿ **قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا** ﴾ ؛ فما علاقة ذبح بقرة بقتل إنسان !

والمرء حين لا يستقيم إيمانه يهوله ظاهر الشىء دون التدبر فى باطنه وفحواه ، فتأخذه الحيرة ابتداءً دون روية واتئاد ، ويتسرع فى إبداء الأحكام دون تحرج وتحفظ .

وقد كان فى مُكنتهم [1] ، ذبح أية بقرة ، لا سيما أنهم علموا أن الأمر من الله سبحانه ، وليس من عند موسى ، ولكنهم أبَوْا تنفيذ هذا الأمر الإلهى إلا على الطريقة اليهودية ؛ طريقة الالتفاف والدوران ، وطريقة التمحل والتلكؤ ، وقد انتهزوها فرصة ، حين لم يروا تقارباً بين ظاهر الأمر والغاية المنشودة فى معرفة القاتل ، فأخرجوا كل ما فى جعبتهم من تحايل واعوجاج ، وراحوا يستعرضون نوعاً من الحذلقة الجوفاء ، و كثيراً من التظرف المائع البغيض ، كأنهم أرادوا إظهار مواهب الفطنة والذكاء ، فى موقف لم يُطلب منهم فيه سوى ذبح بقرة ، يُذبح منها

(1) قدرتهم .

الكثير كل يوم منذ أن خلق الله السموات والأرض !

وهل فى ذبح بقرة استشكال وتصعيب ؟! وهل يحتاج إلى كل هذه الأسئلة عن لونها وشكلها ؟! أم أنه لون من ألوان الانحراف والتشكيك ؟!

وموسى الداعى الذى لا يعزب [1] عنه طبيعة هذه النفس الشاذة ، يجاريهم ، ويصبر عليهم ، والله سبحانه كذلك لا يوجه إليهم لوماً مباشراً ، ولا عتاباً واضحاً ؛ بل يجيبهم إجابات محددة ، فهو سبحانه يريد إقامة الحجة عليهم ، واستنفاد المعاذير ؛ ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حَيَّ عن بينة .

وفى هذا درس بالغ للدعاة ؛ حين يواجهون صنفاً من الناس ، قد علموا سلفاً اعوجاجهم وانحرافهم ، ورأوا منهم الصدود والإعراض ، إلا أن الهداية ـ إذا أراد الله تحقيقها ـ لا تتخلف مهما قست القلوب وغلظت . فكم من أناس استبعد الداعى هدايتهم ، ثم صاروا مهتدين ، وكم من أناسٍ تيقَّنَ صلاحَهم ، ثم غَدوا ضالين .

فالقلب ـ وهو محل الهداية ـ صنعة الله ، وهو وحده المتصرف فيه كيفما شاء ، وهو وحده القادرعلى تحويله وتبديله وقتما شاء ، وهذه حقيقة إن ترسخت فى قلب الداعى ألهمته فتوحاً من الخير والصلاح لا حدود لها .

وما على الداعى إلا أن يصبر ويحتمل ، مع نية صادقة ، وحكمة بالغة ، فلا أقل حينئذ أن يخرج بقولة مؤمنة كالتى خرج بها موسى حين قالوا : ﴿ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ ، فضلاً عن الأجر الوافى من الله سبحانه .

وحين نتأمل الأسئلة التى وجهها قومُ موسى إليه عن البقرة ، نراها سخيفة ، وغير جادة ؛ فالأول عن البقرة عموماً ، فجاء الجواب محدداً وواضحاً : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ .

---

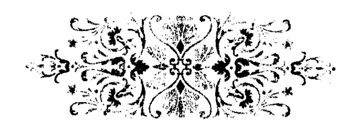
(1) لا يغيب .

القوم يَهْوَوْن التشدد ؛ فيسألون سؤالاً غريباً عن لونها ، ولون البقرة معهود مشهود ، ولكنها فذلكة الذين فى قلوبهم مرض ، وتظرف الذين لا يفقهون .

هنا غدت المهمة شاقة ، وأصاب القومَ كثيرٌ من التيه والشتات ، واختلط عليهم الأمر والتبس ، فجاء السؤال الثالث ينمّ عن حيرة تمزقهم : ﴿ **قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ** ﴾ .

فلما وجدوا ضالتهم ، قالوا قولةَ جهل وحمق : ﴿ **قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ** ﴾ ، فكأن موسى ـ عليه السلام ـ لم يجىء بالحق إلا الآن ، وكأنهم فى اختبار لموسى ، وقد نجح أخيراً ، وأتى لهم بالجواب الصحيح !

وحين ذبحوها أمرهم أن يضربوا القتيل ببعضٍ منها ، فقام حياً بإذن الله ، فأخبرهم عن قاتله ، ثم عاد ميتاً كما كان ﴿ **كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ (1) .



(1) آيات القصة فى سورة البقرة من الآية : 67 - 74 .



يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ

يوسف الصدِّيق . . ذلكم النبى الكريم ، المصطفى المتفرد ؛ فى جمال صورته ، وبهاء سمته ، وفى مراحل حياته كلها ؛ من صباه إلى موته . . لقد كان نبياً آخَر ، فكانت الابتلاءات التى مرت به جديدة فى حياة الأنبياء وعجيبة ، يتراءى لك من خلالها القدرة الإلهية حين تصر الأمور وفق مشيئتها وإرادتها ، ووفق ذلك العلم المطلق الذى لا حد له ولا قيود .

خُطَى رتيبة . . مشاها يوسف ـ عليه السلام ـ تأخذه من درب إلى درب ، ومن زاوية إلى أخرى ، ومن ضائقة إلى ضائقة أشد . . وهو يسير معها راضياً مطمئناً إلى قضاء الله وقدره ؛ ليصل فى النهاية إلى أهداف محددة ، وغايات مقصودة .

أُبتلى منذ صباه فى حب أبيه له ؛ فيُلقى فى غيابة الجب ، ليباع بثمن بخسٍ دراهم معدودة ، فيصير خادماً فى قصر العزيز ، ثم يدخل السجن فى جرمٍ هو منهُ برىء ، براءة الذئب من دمه ، ويمكث فيه أعواماً عديدة ، وهو فى كل هذا بعيد عن أهله ووطنه ، ليس له معين ولا نصير إلا الله سبحانه .

وتسير الابتلاءات واحدة تلو الأخرى ، وصاحبها مغمور لا ذكر له فى دنيا الناس ولا احتفاء ، ثم يخرج من السجن ليكون على خزائن الأرض . . هكذا ضربة واحدة ، وفق تدبير محكم ، وتسلسل عجيب ؛ ليظل الناس متعلقين دوماً بسبب الأسباب ، فالأسباب ـ وإن كنا مطالبين بتحقيقها ـ إلا أنها فى واقع النتائج ، وبلوغ الغايات لا تصنع شيئاً ، ولا تغير من قدر الله مثقال ذرة ، بيد أن تحقيقها على الوجه الذى أراده الله يفضى إلى ثواب عظيم ، وأجر جزيل ، دون اشتراط مغانم فى هذه الدنيا ، إلا تلك التى قدّر اللهُ وقَضى !

وعلى أية حال سنقف عند آخر مراحل الابتلاء فى حياة ذلك الصدّيق ، حين دخل السجن ، ودخل معه فتيان .

ولعل نقطة البُدَاءة تكون مع ما ذكره ابن كثير فى تفسيره عن شخصية يوسف وهو فى السجن :

« . . وكان يوسف ـ عليه السلام ـ قد اشتهر فى السجن بالجود والأمانة وصدق الحديث وحسن السمت وكثرة العبادة صلوات الله عليه وسلامة ، ومعرفة التعبير [1] ، والإحسان إلى أهل السجن ، وعيادة مرضاهم ، والقيام بحقوقهم » .

ويوسف ـ عليه السلام ـ حين يتصف بهذه الصفات السامية ، وحين يتعامل مع نزلاء السجن بهذه المعاملة النبيلة ، فإنه يقدم أولاً الأسوة الحسنة ، التى هى بمثابة الركن الركين الذى تقوم عليه الدعوة ، والحصن الحصين الذى يدرأ عنها سموم النفاق والمراءاة ، والخداع كذلك !

كما أنه يقدم بسلوكه الرفيع هذا أجلَّ شهادة ، تضمن له القبول لدى الناس أجمعين . . فتراه ـ وهو فى ضائقة الحبس ـ يشتهر بالجود والإحسان والأمانة ، وتراه لا يتوانى فى خدمتهم ، ولا يقصر فى حقوقهم ، بل يعود مريضهم ، ويمسح على آلامهم وجراحهم ، فلم يشغله همُّ السجن عن تفريج هموم الآخرين ، ولم تشغله قسوة الحياة فيه عن لينه وعطفه ، ولم يصرفه ظلم الآخرين له عن الإحسان إليهم ، والبر بهم ، وذلك من شيم الكرماء الأصلاء ، بينما التفريط فى الأخلاق والمبادئ وقت الضيق من سمات أصحاب القلوب المنخوبة [2] ، والهمم القاصرة !

وتراه ـ كذلك ـ لا يتعالى عليهم ، ولا يضع حاجزاً بينه وبينهم ، وهو ذلك الشريف النبيل ، وهم بعدُ مجرمون متهمون ، فصاحب الرسالة لا يتخير الناس على أساسٍ من الحسب والنسب ، ولا يحول دون دعوتهم ماضٍ قد انتهى ، أو جرمٌ

(1) عبَّرَ الرؤيا : فسّرها .
(2) التى تتصف بالجبن .

قد ارتكب . فقد يكون نزيل السجن أقرب إلى الموعظة من ذلك الذى شغلته الدنيا، وألهته شهواتها ونزواتها ، ومهما يكن من أمر . . أليس من الواجب على صاحب الدعوة أن يقيم الحجة معذرةً إلى ربه ، وتبرئة لساحته من التقصير والإهمال ؟! وخاصة مع من تجمعك معهم ظروف واحدة ، وجيرة لاصقة ، كما كان الحال مع يوسف حين جاور من جاور !

غير أن فتيين قد أحبا يوسف حباً جماً ، وها هما قد رأيا مناماً : ﴿ . . قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ . . ﴾

وينتهز يوسف ـ عليه السلام ـ الفرصة ؛ ليقدم لهما دعوته ، ويطرح عليهما رسالته ، فتراه لا يستعجل فى تعبير الرؤيا ، بل يستغل لحظة تلهف الفتيين ، وشغفهما ، وعظيم إنصاتهما ، وشدة الحاجة إلى تفسيرها .

إنها فرصة سانحة ، لا يمكن أن تفوت داعياً مخلصاً ، ولا ناصحاً أميناً . فكم من دعوات هبت سدى ، لأن صاحبها ألقاها على أسماع سادرة ، غير مهيأة للإنصات والاتباع . . غير أن يوسف الصدّيق يعرف متى يدعو ؟ وكيف يصل إلى قلب من يدعوه ؟ فلا يُطفئ حماس الفتيين بتفسير الرؤيا أولاً ؛ ليبدأ دعوته بعد أن فقدا نشاطهما ، وغاب إنصاتهما . . ولكنه فَاقهٌ حصيف ، يَشْرع فى دعوته ابتداءً ، متبعاً منهجية فريدة ، وتسلسلاً باهراً :

فقد اصطفاه الله بأخبار الغيب : ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾

وليس ذلك كهانة ولا تنجيماً ، بل وحى من الله وإلهام : ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾

وهنا يكون قد بدأ بعنصر الاطمئنان ، وقدَّم شهادةً قوية على صدقه ومكانته ، فما يأتى بعد ذلك يكون محل إقرار وتسليم .

ثم ينكر على القوم كفرهم وجحودهم تلميحاً لا تصريحاً ؛ حين لا يحدد القوم الذين يتحدث عنهم ، بل هم قوم أى قوم ، دون « ال » التى تفيد التعريف :

﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾

ثم يعلنها صراحة ـ فى وقتها المناسب ـ مدوية عالية ، ولكن على هيئة سؤال حصيف : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

وهو سؤال بديهى ، تجيب عليه الفطرة السليمة دون عنت ؛ لأن مثل هذه السؤال لا تكون له إلا إجابة واحدة عند العقلاء !

ثم يدخل فى مرحلة التقرير والتصريح ، فلا مانع آنئذ أن يذهب إلى شىء من التوبيخ لآلهتهم :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾

ويختم دعوته بهذه العبارة الجامعة ، التى تَشعْر فيها نوعاً من الحسم والإلزام :

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

ويمكن لنا أن نلخص المراحل التى مر بها يوسف ـ عليه السلام ـ فى دعوته لهذين الفتيين فيما يلى :

(1) تقديم السلوك العملى ، الذى يضفى على الشخصية كثيراً من التوافق والمصداقية .

(2) التأكد من عنصر الحب بين الداعى والمدعو . فهذا العنصر يقتصر كثيراً من الخطوات ، ويختصر كثيراً من الوقت .

---

(1) الآيات فى سورة يوسف من الآية : 36 - 41 .

(3) إدخال عنصر الثقة والطمأنينة إلى قلب من تدعو ، وقد كان نَسَبُ يوسف ـ عليه السلام ـ ونبوته من الأشياء التى وفرت له هذا الجانب .

(4) إرجاع كل شىء من الفضل والعلم إلى الله سبحانه .

(5) توضيح وتفصيل لما هو عليه من الفكر والعقيدة ؛ فقد ترك ملةَ قوم كافرين ، واتبع ملة آبائه .

(6) إعطاء فرصة للتمييز والاختيار ، حين قارن بين الرب الواحد ، والأرباب المتفرقين .

(7) مرحلة الحسم والتقرير ، ووضع الأمور فى نصابها دون لبس أو غموض ؛ فالعبادة لله وحده ، وكذا الحكم والتشريع .

لقد كان يوسف ـ عليه السلام ـ متحلياً بحكمة بالغة ، وموعظة حسنة ، تسير وفق معايير محددة ، ووسائل لا يُخطئها التوفيق والسداد .

إنَّـهُ من سُلَيْمَـانَ

طائر صغير الحجم ، جميل الصورة ، يجوب الأرض شرقاً وغرباً ، يبحث عن رزقه المخبوء . . يعلو ويهبط فى فضاء الله دون قيد أو تضييق .

وها هو الآن قد حط الرحال فى مملكة سبأ باليمن السعيد ، بعد أن تخلف عن سيده وقائده ، غير أن المنكر الذى رآه ، والمشهد الذى تملاه قد هز كيانَه ، وآذى فطرتَه ، وهو بعدُ طائر لا يعقل فى نظرتنا الضيقة للكون والحياة ؛ بل يعقل أيما عقل ، ويخضع لنواميس لا يدركها عقلنا المحدود ، ويتجاوب مع طقوس لا نعلم كُنهها ، ولا ندرى كيف تكون ؟! إلا أنه يسبح كما يسبح المؤمنون ، ويصلى كما نصلى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (1) .

فهو من ذلك الشىء الذى يسبح بحمد الله :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (2) .

هذا الهدهد بطبيعته تلك قد هاله هذه المرأة التى تسجد للشمس من دون الله ، ومعها قومها يسجدون ، وكان من المفترض ، ومن الفطرة كذلك أن يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض .

فهرع إلى سيده حيث كان فى انتظاره ، وحيث جرت مراسم دعوة فريدة ، غير مسبوقة ولا ملحوقة ؛ دعوة ملك كريم لملكة ذات عقل وحكمة !

---

(1) النــور : 41 .
(2) الإسراء : 44 .

وكأنّا نتطلع إلى نبى الله سليمان ، وهو يخطب فى الناس : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ (1) .

ويتراءى لنا وهو فى عرضه العسكرى الحاشد ، وهو فى أُبهة الحكم ، وعظمة السلطان ، وشرف النبوة . . وهو فى جيش لم يَرَ التاريخ مثله ، ولن يرى! فالجن والإنس والطير يُوزعون ويُمنعون من التقدم بين يديه !

تأمل هذه العظمة ، وتخيل ذاك الفضل المبين ، وانظر إلى ذلك الحشد العسكرى الفريد الذى جمع المتناقضات جميعاً ؛ جن وإنس وطير ، تحت إمرة رجل واحد . كلٌّ يعرف مهمته ، وكلٌّ يعلم رتبته ووظيفته ، فى تناسقٍ عجيب ، ونظام دقيق بارع !

جمع الله ذلك لنبيه الكريم سليمان ، وما يقدر على تسخير ذلك إلا هو ؛ فهو الذى خلق ، وهو الذى وهب .

غير أن العظمة ليست فى هذا التجمع اللافت ، ولا فى هذه القوة الضاربة ، ولكنها فى ذلك التقابل المقصود بين ذلك الجَحْفل الهائل وتلك النملة الضعيفة ؛ لتبقى قوى الموازنة هى المسيطرة على نواميس هذا الكون العظيم .

فعند بلوغ القمة ، وعند الظن بالقدرة الهائلة ، فإن نملة ضعيفة جد ضعيفة ، يحق لها ـ وهى لا تكاد تبدو على وجه الأرض ـ أن تتحدى ، وأن تنجو ، وأن تحمى مملكتها ، وتسيطر عليها ، وأن تأمر كما يأمر سليمان جيشه الضخم !

وتقدر كذلك أن تدخل حصنها فلا يقوى أحد أن يصيبها بأذى ، حتى لو كان سليمان وجنوده !

إنها مقابلة تستحق التأمل والنظر ، فلم يسجل القرآن حديث النملة عند مرور

(1) النمل : 16 .

هذا الموكب الحاشد إلا لحظة قد ندركها وقد لا ندركها ، غير أنها توحى بعظمة ما وهب الله للخلائق جميعاً ، وأنه سبحانه بيده تصاريف الأمور كلها ، يمنح القدرة لمن يشاء ، ويعطى أسباب الحماية لمن يشاء .

ورغم مرور هذه القرون المديدة ، إلا أن صورة سليمان وجنوده تتراءى أمامنا وهو يمر على وادى النمل ، وما زالت ابتسامته ترتسم فى خيالنا الطليق :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (1) .

والنملة هنا تحاكى صفة الملكة ، وهى بالفعل ملكة ، تُنظم أبناءَ خليتها ، وتأمر وتنهى ، وتشعر أنها مسؤولة عن شؤون مملكتها ، وتشعر بالفخر والاعتزاز حين يصدر منها هذا الأمر الحاسم : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ؛ فهى حين تنادى لا تنادى هَمَلاً أو ضائعاً أو أفراداً لا وزن لهم ولا قيمة ؛ بل تنادى أمة النمل جميعاً : يا أيها النمل . . هكذا هى تشعر ، وهكذا هى تحاكى سليمان وجنوده ، فهى خلق كذلك من خلق الله ، وإبداع من إبداعاته التى لا تحصى ولا تعد .

وحين يبتسم سليمان من قولتها فهو قد فهم مقصدها ، وعلم مرادها ، كأنْ قد احترم قيادتها ، وتعجب لشدتها وحزمها ؛ ليتوجه إلى ربه بهذا الدعاء اللطيف ، أنْ علمه منطق الطير ، وأجزل له العطاء .

والنملة هنا تتكلم ، والهدهد كذلك ، ودابة الأرض حين تقترب الساعة : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ ﴾ (2) .

---

(1) النمل : 18 - 19 .
(2) النمل : 82 .

فالطير والحيوان والحشرات تنطق فى هذه السورة عدا الظالمين يوم القيامة : ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ ﴾ [1] .

ويستعرض النبى الكريم كتيبة الطير ، فلا يرى الهدهد ، فأصدر حكماً لا ضعف فيه ولا تأخير ، ولا ظلم ولا جور :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [2] .

ويعد هنيهة أقبل الهدهد دون أن يتلجلج أو يتلعثم ، ودون أن ترتعد فرائصه ، أو تضطرب قوائمه ؛ فالذى معه الحق وبيده الحجة البالغة يلازمه الثبات واليقين ، والسكينة والطمأنينة .

فهو قد أحاط بما لم يحط به قائده ، وقد أتى بنبأ يقين :

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [3] .

وقد كان الهدهد بارعاً فى استهلاله هذا ، وكان فذاً حين استطاع أن يلفت نظر قائده إليه ، وأن يجذب إليه سمعه وبصره ؛ فهو صغير فى مملكته ، ولكنه قد أحاط بما لم يحط به سيده وقائده .

ولما كان بارعاً فى استهلاله كان حصيفاً في عرض قضيته ، فأبان وأفصح :

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ [4] فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا

---

(1) النمل : 85 .
(2) النمل : 20 - 21 .
(3) النمل : 22 .
(4) كل مخبوء مستور .

تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (1) .

وأن يصف الهدهد عرشها بأنه عظيم ، وأنها أوتيت من كل شيء فيه محاكاة لملك سليمان وسلطانه ، يسترعى الانتباه والاهتمام ، ويسترعى كذلك البحث والتدقيق ، والشغف والإمعان .

وأن يجدها وقومها يسجدون للشمس من دون الله فيه صلة بدعوة سليمان النبى ورسالته ، وفيه لزوم التغيير والتصحيح كذلك .

بيد أن اللافت فى استبيان الهدهد تعليقه الآسر على من يعبدون الشمس ، وكلماته التى تفيض روعة وبهاء ، وتفيض إيماناً ويقيناً . . وكأنَّا نشارك هذا الهدهد استغرابه واستنكاره ، فتتجاوب معه قلوبنا ، وتستجيب جوارحنا ، فتَهوى للسجود لرب هذا الهدهد ، ورب الناس أجمعين .

إنها ترنيمة آسرة ، خرجت من فم هدهد مؤمن ،وكل الطيور مؤمنة ، إلا أن هدهد سليمان كان داعياً ، وكان حكيماً كذلك . . وتراه يحب السجود لله كثيراً :

﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ . . ﴾

ويسلط الهدهد الضوء على قدرة الله فى علم كل مخبوء ، وكل مستور ، فيكون التناسق بين ذلك وبين مهمته فى هذه الحياة ؛ فهو حين يُخرج بمنقاره شيئاً من مخبوء هذه الأرض ، فإن ذلك لا يعود إلى مهارته وقدرته ، بل يعود إلى الذى وهبه كل هذه الخصائص ، ومنحه هذا التمكين .

وحين رأى الهدهد المنكر قام بما لا يقوم به كثير من بنى الإنسان ، وتحرك بما يجب عليه من النصح والإبلاغ ، وكان سبباً فى هداية هذه الملكة وقومها ، فتحولوا

(1) النمل : 23 - 26 .

من السجود للشمس إلى السجود لرب الشمس . . وفى هذا خير كثير ، وتصحيح يستحق الثواب الوافر ، والرضا الشامل .

وتأمل فطرة هذا الهدهد حين رأى هذا المشهد ؛ مشهد الملكة وهى تسجد للشمس ومعها قومها ، فتراه قد تَفزَّع واستنكر ، ودهش واستغرب ، وعده منكراً عظيماً ، وفعلاً قبيحاً ، فلم يهدأ له جفن ، ولم تسكن له جارحة حتى بلَّغَ قائده الكريم ، وحتى تغير هذا العمل الشنيع .

وقد كان أميناً حين تحدث ، وكان مخلصاً حين دعا وحين وعظ ؛ وكأنه يحاكى الأنبياء فى مهمتهم ، وكأنه يشابه المصلحين الكبار .

كم كان هذا الهدهد عظيماً حين حول هذا السجود الضائع للشمس إلى سجود دائم لله الواحد القهار ، وكم كان عظيم الغيرة على دينه ، عظيم الحرص على أن يهتدى الخلق أجمعون !

وقد أورد ابن كثير فى ذلك قولاً وحديثاً : « ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير ، وعبادة الله وحده والسجود له نُهى عن قتله كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : نهى النبى ـ ﷺ ـ عن أربع من الدواب : النملة والنحلة والهدهد والصرد [1] ، وإسناده صحيح » [2] .

ورغم بيان الهدهد ووضوح صدقه لم يستعجل سليمان ؛ بل احتاط وتريث ، وتأنَّى وتبصَّر : ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [3] .

وكأنه أراد أن يكمل الهدهدُ المهمة التى بدأها ، فأعطاه كتاباً يلقيه إليها ، ثم يتنحَّى قليلاً ؛ ليعرف ردَّهم وجوابهم : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ

---

(1) طائر معروف .
(2) ابن كثير 3 / 349 .
(3) النمل : 27 .

﴿ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [1] .

وها نحن الآن فى مملكة سبأ ، وقد تلقت بلقيس الكتاب ، فجمعت أشراف القوم وأعيانهم ، وأحسنت الاستهلال حين قالت : ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ [2] فالفعل ﴿ أُلْقِيَ ﴾ بهذه الصيغة وبهذا المعنى قد أصاب فصاحة وبلاغة ؛ فهى قد رأت عجباً حين أبصرت هدهداً حاملاً كتاباً ، قد ألقاه بين يديها لا تدرى صاحبه ، ولا تعلم كُنهه ، قد أُلقى إليها دون تلكؤ منه أو تمحل ، ودون تدخل أو تطفل ، فهى بعدُ امرأة ، وهو رسولُ رسولٍ كريم !

ويبدو أن سليمان ـ عليه السلام ـ كان معلوماً لدى القوم ، وكان موضع تقدير وإجلال ؛ فبدأتْ بذكر اسمه أولاً ، ثم ذكرت فحوى رسالته الكريمة : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [3] .

وهو كتاب كريم حقاً ، وبليغ كذلك ، قد استهلّه باسم الله ، وعطف عليه بنهيه وأمره ، فى كلمات مختارة ، وألفاظ لا زيادة فيها ولا نقصان .

وحين استشارت قومها فوضوا الأمر إليها ، بعد أن بينوا لها قوتهم وشدة بأسهم :

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝٣٢ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [4] .

وحين أراد القوم أن يعبرو عن طاعتهم المطلقة لهذه المرأة ، وإفراطهم فى تسليم أمرهم إليها ، واستعدادهم الكامل لأى أمر أو نهى يصدر منها . . حين أرادوا ذلك عبروا بهذه الكلمات المنقادة انقياداً يُشبه حالهم ومقامهم : ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ .

---

(1) النمل : 28 .
(2) النمل : 29 .
(3) النمل : 30 - 30 .
(4) النمل : 32 - 33 .

غير أنها كانت حصيفة ذكية ، وكانت أعقل من قومها وأفطن ، وكانت تزن الأمور بميزان آخر ، قد لا يدرك أبعاده أولو البأس الشديد .

وقد علمت كذلك أن سليمان أقوى وأعلى ، وأنه من الحكمة عدم المواجهة ؛ صوناً لعزتها وكرامتها ، وحقناً لدماء قومها وعشيرتها ؛ فالملوك إذا دخلوا قرية عنوة أفسدوها أيما إفساد ، وجعلوا العزيز ذليلاً ، والشريف وضيعاً ، والعامر خراباً ، والزرع حصيداً كأنّ لم يغنَ بالأمس :

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (1) .

وكان من دهائها أن ترسل له هدية ثمينة ، من باب المصالحة والمهادنة ، تختبر بها طبيعة أمره ، وأبعاد غاياته وطموحاته :

﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (2) .

ولكن نبي الله كان أشد فطنة ، وأسرع حزماً وحسماً :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (3) .

فليس في الأمر هوادة ، وليس لعباً ولهواً ؛ بل هو جد لا هزل فيه ، فهم قوم يسجدون للشمس من دون الله ، ولابد من التصحيح والإبلاغ ، ولابد من التبيين والإنذار ؛ فهو رجل رسالة ونبوة قبل أن يكون صاحب ملك وجاه ، وهو يعرف أنها لن تفهم طبيعة موقفه إلا إذا دخل لها من بابين ؛ باب القوة والشدة وباب الأبهة والعظمة .

(1) النمل : 34 .
(2) النمل : 35 .
(3) النمل : 36 - 37 .

وباب القـوة قـد اتضح من رده على رسل بلقيس وهديتـهم ، أمـا بـاب الأبهـة والعظمة فقد تمَثَّل فى إحضار عرشها ، وبناء قصر عظيم لها .

فهى امرأة غارقة فى الترف والسرف ، ذات ملك وجاه وسلطان ، ولا يلفت نظرها إلا أبهة أعظم من أبهتها ، ولا يجذبها إلا مُلك أزهى من مُلكها ، ولا سبيل إلى تواضعها وخضوعها إلا غلبتها بما هو فى يدها ، عندها تتراجع كثيراً ، وتتخلى عن الهالة التى تحيط بها ، والنفخة التى تحاكيها ، وتتخلص من جواذب الملك ، وعوائق السلطان ، فتفكر فى أناة ، وتتأمل فى رويَّة ، وتخلع على نفسها سمت الإنسان الفرد ، الذى لا ملجأ ولا منجى له إلا إلى الله ، فتقترب من الإيمان شبراً شبراً ، وتعانقه ذراعاً ذراعاً !

لا يصلح لهـذه الملكة إلا الإبهـار ، ولا يلفت نظرها إلا العلو والزهو ، فقـد بُهتت حين رأت عرشها حاضراً أمامها فى لمح البصر ، ودهشت حين أدخلها صرحاً ممرداً من قوارير يجرى من تحته الماء .

وفى ابن كثيـر عن وهب بن منبه قال : « أمر سليمان بالصرح وقد عـملته له الشياطين من زجاج كأنه الماء بياضاً ، ثم أرسل الماء تحته ، ثم وضع له فيه سريره ، فجلس عليه ، وعكفت عليه الطير والجن والإنس ، ثم قال لها : ادخلى الصرح ليريها ملكاً هوأعز من ملكها ، وسلطاناً هو أعظم من سلطانها » [1] .

وعند تفسير قصة إحضار عرشها قال ابن كثير : « ومن ههنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك ، وما سخر له من الجنود الذى لم يعطه أحد قبله ولا يكون لأحد من بعده ، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها لأن هذا خارق عظيم أن يأتى بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه » [2] .

(1) ابن كثير 3 / 353 .
(2) ابن كثير 3 / 351 - 352 .

ولابد للداعى أن يفقه طبيعة من يدعوه ؛ فليس دعوة الغنى كدعوة الفقير ، وليس نصح ملك كنصح أحد الرعية ، وليس وعظ الحاكم كوعظ المحكوم ، وساكن الصحراء غير ساكن المدينة ، وصاحب الفكر غير الغافل الجاهل ، وهذا الذى يطمح فى الزعامة والسيادة غير القانع الراضى ، وهذا الذى يملك قصراً ليس كمن يملك كوخاً ، وذو الوجه الناعم المترف غير ذى الوجه المتعب المحروم .

ومجتمع القرية غير مجتمع المدينة ، وطبقة المشهورين غير طبقة المغمورين ، وشريحة المتنورين غير شريحة الساهين الضائعين .

لكلٍّ مدخله وطريقته ، ولكلٍّ وسيلته التي تناسبه ، حتى الرجل الواحد ، تختلف دعوته من ظرف إلى ظرف ، ومن وقت لآخر ؛ فعند الحزن دعوة ، وعند الفرح دعوة أخرى ، وللنصيحة وقت ، وللسكوت وقت آخر .

إنها فقه وعلم ، وليست جهداً ضائعاً ، وعملاً غير مدروس ، وهى ظرف ومناسبة وموقف ، وليست لعباً ولهواً واعتباطاً ، وهى دعوةُ إتقان وإخلاص ، وليست دعوة نفاق ورياء .

ولقد استطاع سليمان ـ عليه السلام ـ أن يقرأ مدخل هذه الملكة ، فجاءها من الباب الذى تلجه ؛ فأظهر لها سلطاناً أعظم من سلطانها ، وملكاً أعز من ملكها ، فأسلمت لله رب العالمين :

﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (1) .

ولقد كانت ذات عظمة ، وذات فطنة ؛ فالعظمة حين قالت : وأسلمت مع سليمان ، فهى ما زال تظن أنها لا تختلف عنه فى كثير ، فهو ملك وهى ملكة ، فالشعور بالأبهة ما انفك يلابسها ، والندية ما فتئت تسرى فى عروقها ، فأسلمت

(1) النمل : 44 .

مع سليمان وليس لسليمان ، فهما على أرض واحدة ، خاضعَيْن مستسلميَنْ لله رب العالمين .

وهى ذات فطنة حين سُئلت : أهكذا عرشك ؟ فكان ردها فذاً ، لا نفى فيه ولا إثبات ، ولا كذب فيه ولا خداع . فهو عرشها ولكنه هناك فى سبأ ، وهو عرشها ولكن هناك تغييراً فى بعض معالمه ، فناسب هذا التردد أن تكون الإجابة : كأنه هو . وهى إجابة كلها حنكة ، وكلها ذكاء ، أخرجتها من حرج الموقف ، وسوء المأخذ ، وملامة الخطأ .

أما سليمان ـ عليه السلام ـ فكان عظيماً فى كل شىء ، قد وهبه الله ملكاً لا ينبغى لأحد غيره ، وسخر له الجن والإنس والطير ، وحين استقر عنده عرش بلقيس، وقد جىء به فى لمح البصر ، لم يأخذه الفخُر والاعتزاز ، ولم يشغله التعالى والتباهى ، ولكن أخذه التواضع كل مأخذ ، وشغله الشكر والثناء ، وعد ذلك ابتلاءً واختباراً :

﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (1) .

إنها صورة وضيئة من صور الدعوة ، وصورة خاصة جداً كذلك ؛ فيها دعا ملكٌ ملكةً ، ساعده فى ذلك هدهد ، ورجل عنده علم من الكتاب ، ولكنها مع خصوصيتها أكثر استفادة ، وأعظم عبرة وعظة !

(1) النمل : 40 .

قيـــل ادْخُــل الْجَــنَّةَ

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ .. تشعر كأن الكون كله يقولها ؛ حين بُنى الفعل للمجهول ، وكأن جموعاً غفيرة تزفه إليها ، وهى جذلة سعيدة ، تشارك هذا المؤمن فرحته ، وتهنئه بهذا الفوز العظيم . . كأنها كانت منه على موعد ، وكأن موكب الاحتفاء كان فى ارتقاب مقدمه ومجيئه !

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ .. فقد كان يتطلع إليها ، حين تطلع إلى الإيمان بربه ، وحين آمن برسله ، وحين جاء من أقصى المدينة يسعى ؛ ناصحاً داعياً .

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ .. فهى حق لأولئك الدعاة المخلصين ، الذين يصدعون بالحق ، ويجهرون به دون خشية أو خوف . . لا يلتفتون إلى بطش الباطل وانتقامه ، ولا يخدعهم انتفاشه وانتفاخه ، ولا يبهرهم كثرة الأتباع ، وقوة السلاح .

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ .. جنة الرب الخالق ، أعدها لكل ناصح أمين ، يجوب المدينة من أقصاها إلى أقصاها داعياً إلى ربه . . تتراءى له ـ وهو فى سيره ـ الجنة وقصورها ، فلا يعرف الأنانية حتى يحجب نورها عن الآخرين ؛ بل يود أن يطالعها معه الناس أجمعون ، فيعملون لها ، ويشمرون عن ساق جدهم ؛ فيدخلونها !

إنه الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، حين كذب قومه الرسل الكرام ؛ كذبوا ثلاثةً من الرسل دفعة واحدة . . فلم يعبأوا بدعوتهم الكريمة ، ولم يستجيبوا لنصحهم الأمين ؛ بل قصدوا قتلهم ، وعمدوا إلى التخلص منهم . . فأقبل هذا المؤمن مسرعاً ، خائفاً مشفقاً ؛ ليس على نفسه ، بل على الرسل الكرام .

أقبل . . وهو يعلم غدر قومه ، وسوء مكرهم ، وقوة بطشهم وأخذهم . .

وأنه حين يقتحم ساحتهم داعياً وناصحاً ، فإن التعذيب والتنكيل وسيلتهم وطريقتهم . . ولكنها أمانة التبليغ ، وإرادة اليقين ، وحتمية المشاركة ، وحس التبعية ، وكراهية التخلف عن نصرة الحق وأهله ، وشناعة القعود والسكوت .

كم كان هذا الرجل يخسر . . لو أنه لم يبرح مكانه ، ولم يجىء من أقصى المدينة ساعياً . . وهو البعيد فى مكانه ، الآمن على نفسه من ذلك الصراع الهالك . . ولكنه حين ينزوى يخسر كثيراً !

يخسر أولاً جنته ، حين لا يضمنها لو مات غير شهيد ، ويخسر كذلك مشاعر الصدق ، وحقائق التجرد لله وحده . .

يخسر نبض الشوق إلى ثوب الله ورضوانه ، وقوة المؤمن حين يتغلب على وشائج الطين ، وثقلة الجسد الفانى . .

يخسر التغلب على تطلعات العمر المديد ، وما هو بمديد ! بل قصير جدّ قصير . . ويخسر كذلك عزمة المؤمن التى لا تلين ، وإقدامه الذى لا يتقهقر ، وشجاعته التى لا تغيب !

كم كان الإيمان يخسر . . حين يتركه معتقدوه ؛ فلا يبذلون فى سبيله النفس والنفيس ، وكم كانت دعوة الحق تتأرجح . . حين يضنّ أتباعها بجسدٍ يفنى ، وحياة لن تطول !

وكم كانت القدوة تصير دعوى كاذبة . . حين لا تتمثل الأجيال على مر الزمان، وكر الأيام تلك الرجالات التى تهب راحتها وحياتها ومالها، وهى راضية مرضية !

كان من الممكن أن يقبع هذا المؤمن فى زاويته هنالك فى أقصى المدينة . يكفيه

إيمانه بالله ، وتصديقه الرسل . . تاركاً الصراع هناك . . فالله مع رسله لن يدعهم ، والهلاك محيط بالكافرين لا محالة .

غير أن نظرته بعيدة . . إنه يتطلع إلى موكب الإيمان حين يدخل الجنة . .

يتطلع أن يكون معهم . يريد لنفسه المكانة العليا ، والثواب العظيم . . يريد نقلةً أخرى ، تعزب [1]، عن فطنة الكثير من بني الإنسان !

بيد أنه وصل إلى قومه يدعوهم وينصحهم ، فتكالبوا عليه ، قتلوه شر قتلة ، فدخل جنة ربه !

تأمل حكايته ، والقرآن يقصها علينا :

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [2] .

وهو رجل بكل ما تحمله هذه الكلمة من ضخامة وإكبار ، واضطلاع بالمسؤولية واقتدار ، ودراية بمواطن النصح ، وأوقات الظهور والإعلان .

وبعد أن بدأ دعوته بالتودد والتقرب ، على عادة الدعاة المخلصين ، وبعد أن نصحهم بإتباع المرسلين ، الذين لا يسألون على دعوتهم أجراً ، وهم مهتدون . .

بعد كل هذا يبدأ بنصح نفسه ، ودعوتها إلى الحق المبين : ﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ . . ﴾

---

(1) تغيب .
(2) يس : 20 - 27 .

وهو بذلك قد افترض أنه واحد منهم ، وأنه لم يسلم بعد ، وأنه يبحث عن طريق الإيمان ، وأنه ما زال فى مرحلة التفكر والتدبر . . وهو بذلك ينزل إلى مستوى ما هم فيه ، ويضع نفسه مكانهم !

وليس هناك أجذب للقلوب وألين ، وليس هناك أذهب للغيظ ، وأنفى للتصادم ، وليس هناك ما يحرج الخصم ، ويُفلُّ غَرْبَه [1] ، ويهز كبرياءه ، ويضع قدمه على خط الرجعة والتفكير ، ويحط أوزار التباعد والتنافر ، وأوار الكراهية والشناءة . .

ليس هناك ما يقوم بكل هذا سوى النزول إلى أرض من تدعو وتنصح ، والوقوف معه على خط واحد ، دون فوقية ودونية ، ودون تشديد وترهيب ، أو تعنيف وتعنيت ، أو اعتلاء وتفخيم . . بل تودد وتقرب ، والتقاء وتحبب ، حتى لو كان المدعو كافراً جاحداً ؛ ذلك أن الوقت وقت دعوة ، ولات حين جدال أو قتال [2] !

يظن كثير من الدعاة ـ وكذلك كثير من الفلاسفة ـ أن الفكر أسلم ، والبرهان أقوى ، والدليل هو الحكم . . غافلين جانب القلب والروح ، ومواطن التودد والتحبب . . على الرغم أن ذلك أولى ، وليس هو الوحيد .

فمن الحق أن تدخل ساحة من تدعو من باب الرحمة والود ، لا من باب العقل والفكر ، ليكن هذا سابقاً لذاك ، حتى لو كان المدعو من ذوى الأحلام ، وأولى الفلسفة والحكمة ؛ فلو ملكت القلب والروح ملكت العقل والبرهان ، والعكس قد يكون غير صحيح !

كم من أناسٍ ذوى كلام يفيض حكمة وعقلاً . . بيد أننا نرفض أحياناً نصحهم وقولهم ، بسببِ عدم الارتياح ، وتباعد الأرواح ، وغياب الود ولو رُفع غطاء البغض لكنا لقولهم من المنصتين .

ولا يعنى ذلك إغفال جانب العقل والبرهان عند الدعوة ، ولكنه يأتى مع التودد والتقرب أو بعده .

وهذا ما أراده الرجل المؤمن . . حين تودد إلى قومه وتقرب ، رغم أنهم مقدمون على قتل رسلهم . . بل ذهب الأمر فى بعض مقامات الدعوة إلى ترك الحكم دون تحديد أو تمييز ، وكأن الأمر غير واضح ، وهو واضح وضوح الشمس فى رابعة النهار . . تأمل هذه الآية الكريمة : ﴿ .... وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (1) .

بل كان مؤمن آل فرعون أشد بعداً . . حين لم يستثن نفسه إن نزل العذاب ، لأنه أراد أن يشعرهم أنهم لحمة واحدة ، وفى خندق واحد ، تودداً إليهم وتأليفاً لقلوبهم : ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا . . . ﴾ (2) .

وكان صاحب يس حكيماً . . حين ذكر جانب الضر دون النفع فى موقف يُتوقع فيه نزول ضر بقومه .

وكان حصيفاً . . حين ذكرهم بربهم ، ونسبهم إليه ؛ فقال : إنى آمنت بربكم ، ولم يقل : إنى آمنت بربى . .

ولكنه حين قالها وثبوا عليه وثبة واحدة ، فقتلوه . . فاختُصر الزمان والمكان ، وإذا بنا نسمع صوت المحتفين بدخوله الجنة . . كأنه يُزف فى موكب مهيب ، ولكنه يتذكر قومه ، ويتمنى ألّو عاينوا ما هو فيه من النعيم فيؤمنوا ، رغم أنهم قتلوه : ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ فدعا قومه ميتاً ، كما دعاهم حياً !

---

(1) يفُلُّ غَرْبَه : يكسر حدته .

(2) ليس الحين حين جدال أو قتال .

الفهرس

